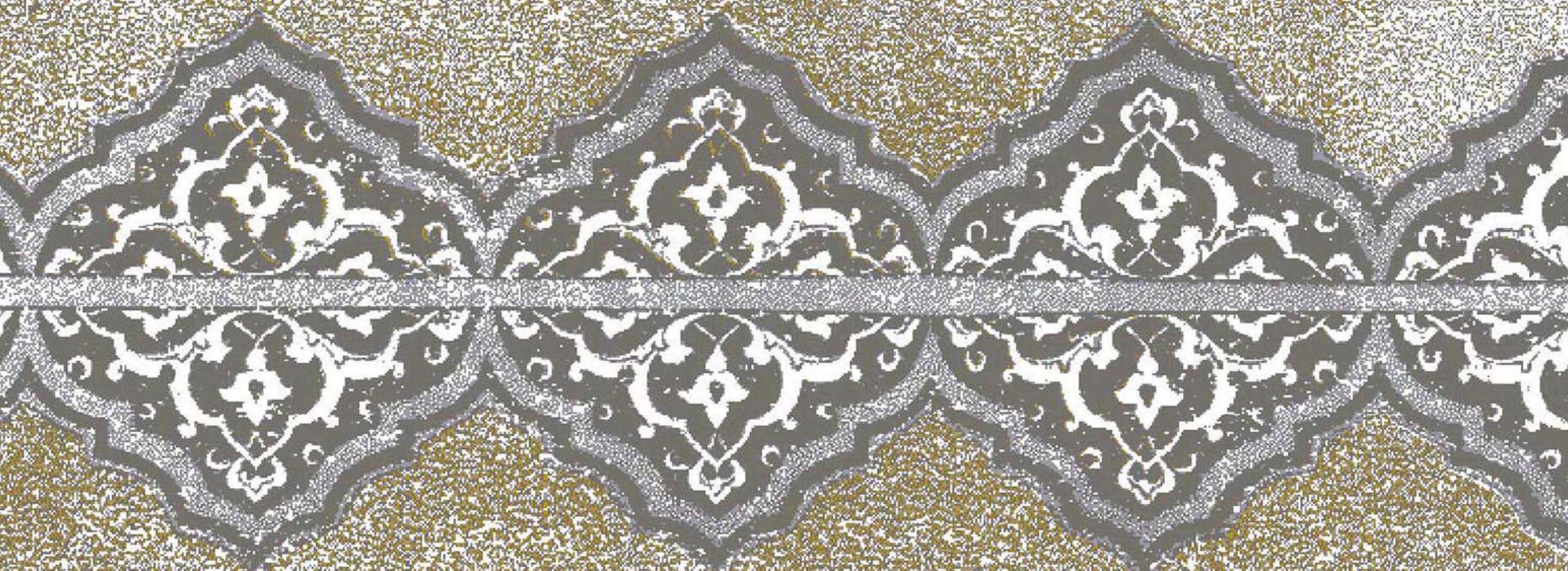


الموداد

shwaihy
28-8-2010

مكتبة روضة الملك فيصل - فرع القطيف - القصير - الموداد - العدد الثاني
العدد الثاني - 2010 - 2011



العَبَّاسُ بْنُ الْوَلِيدِ فَاتِحُ شَطْرِ الْأَنَاضُولِ

بقلم الاستاذ

مُحَمَّدُ شَيْخُ خَطَّابٍ

المجمع العلمي العراقي - بغداد

نسبه وأيامه الاولى

هو العباس بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ابن الحكم بن ابي العاص امية بن عبد شمس ابن عبد مناف بن قصي الاموي (٢) .

ابوه : امير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان ، يكنى بأبي العباس (٣) ، وكان للوليد تسعة عشر ولداً ذكر (٤) ، وكان العباس اكبرهم وبه كان ابوه يكنى (٥) ، ومن المعروف ان الاب يكنى

(١) الانضول او الانطول : لفظة يونانية معناها ، المشرق ، وهي اسم لشبه جزيرة كبيرة ، هي عبارة عن : (آسيا الصغرى) كما نطلق عليها اليوم . يحدها من الشمال الغربي الدردنيل وبحر مرمرة والبحر الاسود ، ومن الشرق جبال ارمينية وفروعها الجنوبية الغربية الى مدينة الاسكندرونة ، ومن الجنوب البحر الابيض المتوسط ، ومن الغرب الارخبيل اليوناني ، والانضول هو ما نسميه اليوم : تركيا عدا القسم الاوربي منها ، انظر التفاصيل في : منجم العمران (٦٥-٦٢/٢) والجغرافية العمومية (١٨٥-١٨١) .

(٢) انظر التفاصيل في : طبقات ابن سعد (٢٢٢/٥) وتهذيب الاسماء واللغات (٢٠٩/١) وجمهرة انساب العرب (٩٠-٨٩) وفوات الوفيات (٢١/٢) وقادة فتح المغرب العربي (٩٥/٢) وتهذيب ابن عساكر (٢٧٠/٧) .

(٣) أسماء الخلفاء والولاة - ملحق بجوامع السيرة (٣٦١) ، وانظر العيون والحدائق (١٢) والعقد الفريد (٤٢٢/٤) و البداية والنهاية (١٦١/٩) .

(٤) البداية والنهاية (١٦٦/٩) وجمهرة انساب العرب (٨٩) .

(٥) العيون والحدائق (١٢) وانظر العقد الفريد (٤٢٢/٤) .

باسم اكبر اولاده الذكور ، كما تقضى بذلك التقاليد العربية المعمول بها حتى اليوم .

وامته ام ولد (٦) نصرانية (٧) .

نشأ العباس وترعرع في كنف والده الوليد ابن عبد الملك ، وكان عهد الوليد متميزاً بالفتوح التي امتدت شرقاً إلى حدود الصين بقيادة قتيبة ابن مسلم الباهلي وإخوته ، وغرباً إلى حدود فرنسا بعد فتح الاندلس بقيادة طارق بن زياد وموسى بن نصير ، فكان عهد الوليد بحق العهد الذهبي لدولة الامويين في الشام فتحاً .

فقد فتح الوليد الاندلس كلها ، والسند (٨) كلها ، وما وراء النهر (٩) ، وغزا ملك الصين (١٠) ، فكان اكثر بنى امية فتوحاً واكثر الخلفاء الفاتحين

(٦) البداية والنهاية (١٦٦/٩) والعقد الفريد (٤٢٢/٤) .

(٧) المعبر (٢٠٥) والعارف (٢٥٩) وتهذيب ابن عساكر (١٧١/٧) .

(٨) السند : بلاد بين الهند وكرمان وسجستان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٥١/٥) والمسالك والممالك للاصطخري (١٠٢) وآثار البلاد واخبار العباد (٩٤-٩٥) وتقويم البلدان (٢٥١-٢٤٦) . وهي في الوقت الحاضر اكثر مناطق باكستان الغربية .

(٩) ما وراء النهر : هو ما وراء نهر جيحون ، فما كان في شرقيه يقال له : ما وراء النهر ، وما كان في غربيه فهو خراسان وولاية خوارزم ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٧٠/٧) والمسالك والممالك للاصطخري (١٦١) وآثار البلاد واخبار العباد (٥٥٧) وتقويم البلدان (٤٨٢-٥١٥) واحسن التقاسيم (٣١٠) .

(١٠) جمل فتوح الاسلام - ملحق بجوامع السيرة (٣٤٠) .

فتوحاً بعد الفاروق القائد عمر بن الخطاب (١١) رضي الله عنه .

وعاش العباس في جو من الاستقرار لم تشهد له الدولة الأموية مثيلاً ، والاستقرار عامل من أهم عوامل الفتوح ، لأنه ييسر للدولة الاتجاه بقواتها الضاربة نحو العدو الخارجي حماية للبلاد المفتوحة وفتحاً جديداً ودفاعاً عن الحدود والسكان ، فتصرف تلك القوات بكل طاقاتها لواجبها الأصلي ، ولا تقتصر على واجبها الثانوي في مجال إخماد الفتن الداخلية والاضطرابات المحلية وتوطيد الأمن والاستقرار داخلياً .

كما أن هذا الاستقرار يثمر ثمرات بالغة في المجال العلمي والاقتصادي ، فتطورت العلوم وانتشرت المدارس العلمية وبرز العلماء الأفاضل ، كما شاع العمران في أيام الوليد ، وبقيت آثاره العمرانية حتى اليوم في الجامع الأموي بدمشق والمسجد الأقصى بالقدس ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم بالمدينة المنورة : (وكانت همة الوليد في البناء ، وكان الناس كذلك ، يلقي الرجل الرجل الرجل فيقول : ماذا بنيت ؟ ماذا عمرت ؟ (١٢)) ، وبنى المساجد في دمشق ، وأعطى الناس ، وأعطى الجندومين وقال لهم : « لا تسألوا الناس » ، وأعطى كل متقاعد خادماً ، وكل ضرير قائداً ، وكان يرسل بنيه في كل غزوة إلى بلاد الروم . (١٣)

في هذا الاستقرار ، تعلم العباس في كنف والده علوم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ، والتاريخ والسير والخبار وعلوم اللغة وفنون الأدب شعراً ونثراً ، كما اتقن الفروسية والرمي بالنبال والطعن بالسيف والرمح ، فأصبح فارس بنى أمية (١٤) دون منازع ، وكان الوليد حين يتحدث عن أولاده يقول : « العباس فارسهم » . (١٥)

(١١) انظر فتوح عمر بن الخطاب رضي الله عنه في كتابنا : القائد (٤١-٤٢) .

(١٢) البداية والنهاية (١٦٥/٩) وانظر ابن الأثير (١٠/٥) .

(١٣) البداية والنهاية (١٦٢/٩) وابن الأثير (٩/٥) .

(١٤) المعارف (٢٥٩) والعيون والحدائق (١٤) وانظر تهذيب ابن عساکر (٢٧٠/٧) .

(١٥) العيون والحدائق (١٤٩) .

ويحدثنا المؤرخون أن الوليد كان يجد في العباس وجداً شديداً ، وكان له في قلبه أحسن موقع ، فأدبه بجميع الآداب ، حتى علمه الرقص وضرب الطبل . (١٦)

ولعل الحياة علمت العباس علماً ليس في الكتب والقراطيس ، ولكنه أهم مما في الكتب والقراطيس ، فقد كان يحكم انتسابه إلى بيت الخلافة يشهد إصدار القرارات الإدارية والسياسية والعسكرية من قيادة الدولة الأموية العليا ، وقد يشارك في إصدار تلك القرارات بشكل أو بآخر ، وشارك عملياً في الغزوات والفتوح ، فأضاف بذلك إلى العلم المكتسب تجارب عملية ، مما جعل لشخصيته في الإدارة والسياسة والقيادة وزناً مرموقاً ، نلمس أثرها في سيرته رجل دولة وقائداً فاتحاً ، وعالماً وأديباً .

جهاده

١ - في بلاد الروم

١ . في سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٧ م) غزا مسلمة بن عبد الملك والعباس بلاد الروم ، وكان الوليد بن عبد الملك قد كتب إلى صاحب (إرمينية) (١٧) يأمره أن يكتب إلى ملك الروم يعرفه أن (الخزَر) وغيرهم من ملوك جبال (إرمينية) قد أجمعوا على قصد بلاده ، ففعل ذلك وأكثر الوليد من حشد قواته القاصدة بلاد الروم ، فساروا نحو (جزيرة ابن عمر) (١٨) ، ثم عطفوا منها إلى بلاد الروم ، واصطدم الفريقان ، فانهزم الروم أولاً ، ثم أعادوا الكرّة فانهزم المسلمون ، ولكن

(١٦) تهذيب ابن عساکر (١٧١/٧) .

(١٧) إرمينية : اسم صقع واسع من برزعة إلى باب الأبواب وإلى بلاد الروم ، وقيل : إرمينية الكبرى خلاط ونواحيها . وإرمينية الصغرى تفليس ونواحيها . انظر

التفاصيل في معجم البلدان (١ : ٣٠٣) والمسالك

والممالك للاصطخري ، ١٠٨ وتقويم البلدان ، ٢٨٧ .

(١٨) الجزيرة : جزيرة ابن عمر ، وهي التي بين دجلة

والفرات ، تشمل على ديار مصر وديار ربيعة ، سميت :

الجزيرة ، لأنها بين دجلة والفرات ، وهي صحيحة

الهواء جيدة الربيع والنماء واسعة الغلات ، بها

مدن جليّة وحصون وقلاع ، انظر التفاصيل في معجم

البلدان (٩٦/٣) ، وانظر حدودها بالتفصيل في

المسالك والممالك للاصطخري (٥٠) .

العباس تبت على رأس (الساقفة) (١٩) صارخاً : « أين أهل القرآن الذين يريدون الجنة ؟ ! » ، فقبل له : نادهم يأتوك ، فنادى : « يا أهل القرآن ! » ، فأقبلوا جميعاً ، فهزم الله الروم حتى دخلوا (طوانة) (٢٠) وحاصروهم المسلمون حصاراً شديداً ، ففتحوها في جمادى الأولى من هذه السنة وشتوا فيها . (٢١)

وهكذا شارك العباس مسلماً بن عبد الملك في فتح (طوانة) ، وكان أثر العباس بارزاً في احراز النصر ، لأن ثباته قلب الهزيمة إلى نصر ، وصان قوات المسلمين من تكبيدها خسائر فادحة في الأرواح ، وزعزع معنويات الروم .

ب . وفي سنة تسع وثمانين الهجرية (٧٠٨ م) غزا مسلمة بن عبد الملك ومعه العباس أرض الروم ودخلها جميعاً ثم تفرقا ، فافتتح العباس (اذولية) (٢٢) ، ووافق من الروم جمعاً فهزمهم ، كما غزا العباس الصائفة من ناحية البذندون (٢٣) ومن الواضح أن مسلمة والعباس بعد أن

(١٩) الساقفة : جماعة من الفرسان والمشاة لحماية مؤخرة القسم الأكبر من القوات العسكرية المتحركة نحو اهدافها ، والقسم الأكبر : الجيش المتحرك نحو اهدافه ناقصاً قطع الحماية (المقدمة - الساقفة - الجنبات) . (٢٠) طوانة : بلد بشفور الصيصة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٦٥/٦) .

(٢١) الطبري (٤٣٤/٦) وابن الاثير (٥٣١/٤) وانظر العبر (١٠٣/١) ، وفي الطبري (٤٣٤/٦) : أن فتح طوانة كان في جمادى الآخرة ، وانظر العيون والحدائق (٣) ، وفي تهذيب ابن عساكر (١٧١/٧) : « أن العباس كبت الروم ثلاثين ألفاً » وفي ذلك مبالغة واضحة ، وفيه أنه غنم مئة دينار كاي فرد من اصحابه .

(٢٢) اذولية : هكذا وردت في الطبري (٤٢٩/٦) وابن الاثير (٥٣٥/٤) ، ووردت في ابن خلدون اذولية في (١٥٤/٣) ، ولم أجد لها ذكراً في المصادر الجغرافية القديمة ، ومن المحتمل أن يكون موقعها في منطقة (طوانة) .

(٢٣) البذندون : وردت في الطبري (٤٣٩/٦) البذندون ، أما في ابن الاثير (٥٣٥/٤) فقد وردت : البذندون ، ووردت في ابن خلدون (١٥٤/٣) فقد وردت : الباذيدون ، والصواب ما جاء في ابن الاثير . والبلدون : قرية بينها وبين طرسوس يوم ، من بلاد الثغر ، مات بها الخليفة العباسي المأمون ، فنقل منها الى طرسوس ودفن فيها ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٩٤/٢) ، وانظر الطبري (٤٣٩/٦) وابن الاثير (٥٣٥/٤) وابن خلدون (١٥٤/٣) حول قسرو هذه القرية .

قضايا فصل الشتاء في المنطقة ، استمرا على الغزو صيفاً قبل أن يعودا أدراجهما إلى قواعد المسلمين ، فبقيا للفتح صيف سنة ثمان وثمانين وشتاءه ، وصيف سنة تسع وثمانين الهجريتين ، مما يدل على استمرارية تحمل العباس لأعباء الجهاد على الرغم من قسوة البرد وشدته في تلك المناطق الجبلية الوعرة .

ج . وفي سنة تسعين الهجرية (٧٠٩ م) غزا مسلمة بن عبد الملك أرض الروم من ناحية (سورية) (٢٤) ، ففتح الحصون الخمسة التي ب (سورية) (٢٥) .

وغزا العباس حتى بلغ (الأرزون) (٢٦) في رواية ، وحتى بلغ (سورية) في رواية أخرى ، وهناك نص على أن الرواية الثانية أصح (٢٧) ، أي أنه بلغ (سورية) في هذه الفزوة .

واتفق مع الذين رجحوا الرواية الثانية ، لأن الخليفة وليد بن عبد الملك بعث ابنه العباس سنة ثمان وثمانين وتسع وثمانين الهجريتين قائداً برفقة أخيه مسلمة بن عبد الملك وهو عم العباس ، ليتدرب على القيادة بأشراف مسلمة الذي كان حينذاك أبرز قادة بنى أمية ويمارس فنون القتال وإدارة المعارك تحت توجيه مسلمة ورعايته ؛ أما في سنة تسعين الهجرية ، فقد بعثه أبوه إلى أرض الروم غازياً على رأس قوة مستقلة قائداً مستقلاً ، لتدريبه على تحمل مسؤولية القيادة وممارسة

(٢٤) سورية : موضع بالشام بين خناصره والسلمية ، والعامية تسميها ، (سوية) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٧١/٥) .

(٢٥) الطبري (٢٤٢/٦) وابن الاثير (٥٤٧/٤) وابن خلدون (١٥٤/٣) والنجوم الزاهرة (٢٢١/١) والعبر (١٠٤/١) ، وانظر التفاصيل في جهاد مسلمة بن عبد الملك الخاص بفتحه سنة تسعين الهجرية .

(٢٦) الأرزون : مدينة مشهورة قرب خلاط ، ولها قلعة حصينة ، وكانت من اعمر نواحي ارمينية ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٩٠/١) ، وقد عد قوم الأرزون من اطراف (ديار بكر) مما يلي الروم ، وقوم يعدونها من (جزيرة ابن عمر) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٩١/١) .

(٢٧) الطبري (٢٤٢/٦) وابن الاثير (٥٤٧/٤) وابن خلدون (١٥٤/٣) ، وقد وردت فيه : (أردن) بدلاً من : (أرزن) ، وتاريخ ابن خياط (٢٠٦/١) والنجوم الزاهرة (٤٢١/١) .

الاعمال القيادية منفرداً بعد إكمال تدريبه تحت إشراف مسلمة سنتين كاملتين ، ولكن الخليفة الوليد بن عبد الملك أراد أن تكون الغزوات غزوة مسلمة ، وغزوة العباس ، على محورين متقاربين تجتمعان في هدف واحد ، لكي يجعل مسلمة أخاه يعاون ابنه العباس عند الحاجة ، وبذلك يحقق هدفين في آن واحد ، الأول تدريب ابنه على القيادة المستقلة ، والثاني ألا يجعله بعيداً عن قوات مسلمة حتى لا يلقي به إلى التهلكة .

واجتماع القوتين : قوة مسلمة ، وقوة العباس ، في (سورية) يحقق للوليد بن عبد الملك هذين الهدفين ، ولا يجعل العباس يتوغل في غزواته إلى (الأرزن) التي هي بعيدة عن (سورية) ، فيعزله عن سند مسلمة له ، قبل أن يستكمل العباس التجربة العلمية على القيادة المستقلة الفعلية كما ينبغي .

والواقع أن هناك مدينة : (أرزن) التي تقع بالقرب من مدينة (ميافارقين) (٢٨) وهي من بلاد (جزيرة ابن عمر) ، و (أرزن) الروم التي تقع على الفرات الغربي (٢٩) ، و (أرزن) الروم هذه هي التي تسمى اليوم (أرزروم) (٣٠) ، والمدينتان بعيدتان عن (سورية) ، ومن الصعب أن تبعد قوات العباس عن قوات مسلمة هذا البعد الشاسع ، وهو - أي العباس - في سنته التدريبية الأولى على القيادة .

د . وفي سنة ثلاث وتسعين الهجرية (٧١١ م) غزا العباس أرض الروم ، ففتح (سَمْسُطِيَّة) كما ذكر الطبري ، و (سبسطية) كما ذكرها ابن الأثير ، و (سبيطلة) كما ذكرها ابن خلدون (٣١) ، أما (سمسطة) و (سبيطلة) فلا ذكر لهما في المصادر الجغرافية القديمة التي بين أيدينا ولا في المراجع الحديثة المتيسرة لدينا ، وأما

(٢٨) مدينة بديار بكر ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٩/٥) .
(٢٩/٨) ، وانظر أيضا بلدان الخلافة الشرقية (١٤٤-١٤٤) .

(٢٩) يعرف عند الأتراك اليوم باسم : قره صو ، أي الماء الأسود .

(٣٠) أرزدوم : أرض الروم ، فسماها : العرب أرزن الروم ، وعرفها الأرمن باسم مدينة : كرن (Karin) والروم باسم : ليودسيوبوليس (Theodosiopolis) انظر : بلدان الخلافة الشرقية (١٤٩) ، وانظر تهذيب ابن عساکر (١٧١/٧) .

(٣١) الطبري ٦/٦٩ ، وفي ابن الأثير (٥٧٨/٤) وردت : (سبسطية) ، وفي ابن خلدون (١٥٤/٣) وردت : (سبيطلة) .

(سَبْسُطِيَّة) (٣٢) فهي مدينة فلسطينية معروفة ، ولا تزال آثارها قائمة حتى اليوم على طريق (نابلس) - (جنين) بالقرب من مفرق طريق (نابلس) - (طولكرم) باتجاه مدينة (جنين) في فلسطين .

والظاهر أن المدينة التي فتحها العباس في هذه السنة هي مدينة (سَمْسُطُاط) (٣٢) ، ومما يؤيد ذلك أن هذه المدينة على محور الفتح حينذاك ، وهي في منطقة القتال الناشب بين الروم والمسلمين حماية للحدود الشمالية الغربية لبلاد المسلمين ، كما وردت نصوص صريحة أن العباس فتح هذه المدينة في تلك السنة (٣٤) .

كما فتح العباس في هذه السنة (طرسوس) (٣٥) و (المرزبانين) (٣٦) ومن الواضح أن (المرزبانين) تقع في منطقة (طرسوس) (٣٧) .

وهذه هي المرة الأولى التي يغزو فيها العباس مستقلاً ، ليرافق فيها عمه مسلمة ابن عبد الملك ، كما حدث سنتي ثمان وثمانين وتسع وثمانين الهجريتين ، وبعيداً عن منطقة مسلمة كما حدث سنة تسعين الهجرية ، وهذا دليل على أن العباس شبّ على الطوق ، بعد أن استكمل تدريبه العملي على القيادة بإشراف عمه القائد اللامع المجرب مسلمة ، فأصبح مجرباً في الحروب وموثوقاً بقيادته ، وأهلاً لتحمل المسؤولية القيادية مستقلاً .

ولكن أين قضى سنتي إحدى وتسعين واثنتين وتسعين الهجريتين ؟ هل بقي إلى جانب والده الوليد بن عبد الملك لتدريبه على القضايا

(٣٢) انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٩/٥) .

(٣٣) سمسطاط : مدينة تقع غربي نهر الفرات ، ولها قلعة في شق منها يسكنها الأرمن ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٢٨/٥) وتقويم البلدان (٢٤٤-٢٤٥) .

(٣٤) انظر النجوم الزاهرة (٢٢٦/١) .

(٣٥) طرسوس : مدينة بشغور الشام بين انطاكية وحلب وبلاد الروم ، بينها وبين (أذنة) ستة فراسخ ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٩-٢٨/٦) وتقويم البلدان (٢٤٩-٢٤٨) ، وذكرها الطبري في أحداث سنة خمس وتسعين الهجرية باسم : (طولس) ، انظر الطبري (٩٢/٦) .

(٣٦) المرزبانين : لا ذكر لها في المصادر الجغرافية التي بين أيدينا ، وقد وردت بهذا الاسم في الطبري (٩٢/٦) وابن الأثير (٥٧٨/٤) ، ووردت في النجوم الزاهرة (٢٢٦/١) باسم : المرزبان .

(٣٧) ابن الأثير (٥٧٨/٤) والنجوم الزاهرة (٢٢٦/١) .

السياسية والادارية ؟ هل غزا فيهما دون ان يرد عن غزواته شيء في التاريخ ؟ ذلك ما غفله المؤرخون ! وارجح ان والده استبقاه إلى جانبه ، ليشرف على تدريبه العملي في شئون الحكم ، لان المؤرخين حريصون على ذكر الغزوات ونتائجها ، فليس من المحتمل ان يغفلوا ذكر غزواته خلال عامين كاملين ، لو انه كان خلالهما غائرا .

ه . وفي سنة أربع وتسعين الهجرية (٧١٢ م) ، غزا العباس ارض الروم ، ففتح مدينة (أنطاكية) (٢٨) على ساحل البحر الابيض المتوسط (٢٩) ، وفتح (قارطة) (٤٠) من الساحل أيضا . (٤١)

والمعروف ان (انطاكية) فتحها ابو عبيدة ابن الجراح لأول مرة سنة خمس عشرة الهجرية (٤٢) (٦٣٦ م) ، ولكن الروم استعادوها من المسلمين لنشوب الاضطرابات الداخلية واضطراب امور المسلمين ، فاعاد العباس فتحها .

ولم يتطرق المؤرخون الى تفاصيل معركة استعادة فتح (انطاكية) ، ومن المحتمل ان تكون المعركة قاسية ، تكبد فيها الطرفان : المسلمون والروم خسائر فادحة ، فاحرقها العباس ، فانطلق عليها : (انطاكية) المحترقة (٤٣) ، وقد يكون سبب إحراقها شدة مقاومتها للفاتحين وبقاءها مدة طويلة ثابتة تقاوم الحصار .

وكانت قد حدثت زلازل عظيمة بالشام هذا

(٢٨) انطاكية : مدينة عظيمة من اعيان المدن على طرف بحر الروم (البحر الابيض المتوسط) . ولها قلعة عالية جدا تبين من بعد بعيد ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٥٣/١) وآثار البلاد واخبار العباد (١٥٠) وتقويم البلدان (٢٥٦-٢٥٧) .

(٢٩) ابن الاثير (٥٨٢/٢) وابن خلدون (١٥٤/٣) والنجوم الزاهرة (٢٢٧/١) وتاريخ ابن خياط (٢١٠/١) .

(٤٠) قارطة : لا ذكر لها في المصادر الجغرافية القديمة التيسرة ، ومن الواضح انها قريبة من انطاكية .

(٤١) تاريخ ابن خياط (٢١٠/١) ، وقد انفرد هذا التاريخ بهذا الفتح .

(٤٢) ابن الاثير (٤٩٥/٢) ، وانظر كتابنا : قادة فتح الشام ومصر (٦٤) .

(٤٣) البلاذري (٢٣٣) ، وانظر ما جاء عن فتح انطاكية في : تهذيب ابن عساکر (١٧١/١) .

العام دامت في غالب البلاد اربعين يوما ، وكان اولها من عشرين آذار (مارس) ، فهدمت الابنية ووقع معظم (انطاكية) (٤٤) ، فمن المحتمل ان إحراقها الذي جرى في صيف ذلك العام جرى لانها اصبحت ركاما ، مما شجّع العباس على الاقدام لاحراق المدينة حتى تنهار مقاومتها إذ لم يقدم الفاتحون المسلمون على إحراق المدن العامرة في ايام الفتح الاسلامي .

و . وفي سنة خمس وتسعين الهجرية (٧١٢ م) غزا العباس بلاد الروم ، ففتح (طولس) (٤٥) و (المرزبانين) (٤٦) و (هرقلية) (٤٧) وقد تكرر فتح (طولس = طرسوس) و (المرزبانين) مرتين : مرة سنة ثلاث وتسعين الهجرية كما ذكرنا ، ومرة سنة خمس وتسعين الهجرية ، ولعل سبب ذلك اختلاف المؤرخين في التوقيت ، والاختلاف في هذه الحالة على كل حال طفيف .

وقد يكون سببه ، ان العباس فتحها مرة سنة ثلاث وتسعين الهجرية ، فانتقضت كما يحدث اعتياديا في المواقع القريبة من الحدود أو التي تشكل الحدود ، فتكون السيطرة عليها بين مد وجزر وكرّ وفر .

اما (هرقلية) فقد فتحها مسلمة بن عبد الملك سنة تسع وثمانين الهجرية (٤٨) (٧٠٨ م) ، فمن المحتمل ان الروم استعادوها من المسلمين ، فجدد فتحها العباس واعادها كرهة اخرى إلى حوزة المسلمين .

(٤٤) النجوم الزاهرة (٢٢٧/١) .

(٤٥) طولس : لا ذكر لها في المصادر الجغرافية القديمة التيسرة ، وقد ذكرنا انها مدينة (طرسوس) ، انظر ما جاء في فتوح سنة ثلاث وتسعين الهجرية في الفقرة (د) اعلاه ، وانظر ما جاء في زبدة كشف المالك (٥٠) .

(٤٦) المرزبانين : ورد ذكرها في فتوح سنة ثلاث وتسعين الهجرية ، انظر ما جاء في فتوح سنة ثلاث وتسعين الهجرية في الفقرة (د) اعلاه .

(٤٧) هرقلية : مدينة ببلاد الروم ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٥٣/٨ - ٥٤) ، وهي مدينة (اراكليية) الحديثة حسب تسميتها عند الاتراك ، وهي هرقلية (Heraclia) عند الروم . انظر الطبري (٩٢/٦) حول فتح هذه الحصون .

(٤٨) الطبري (٢٣٥/٦) وابن الاثير (٥٢٥/٤) .

وفي هذه السنة أيضاً ، افتتح العباس مدينة (قنسرين) (٤٩) ، كما جاء في تاريخ الطبري (٥٠) .

ومن المعروف أن أبا عبيدة بن الجراح كان قد فتح (قنسرين) في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنهما سنة خمس عشرة الهجرية ، وقيل : سنة ست عشرة الهجرية (٥١) (٦٣٦م - ٦٣٧م) ، وهي تقع جنوب مدينة (حلب) ومنها إلى (حلب) مرحلة صغيرة ، وكان الجند ينزلها من ابتداء فتحها ، وهي قاعدة من قواعد اجناد الشام ، فليس من المعقول أن يكتسحها الروم فيستعيدها العباس في تلك السنة ، بينما كان المسلمون قد تغفلوا شمالاً في بلاد الروم . ومن المحتمل أن الخطأ في ذكر هذا الفتح قد ارتكبه النساخ ، والدليل هو ذكر فتحها ليس في أحداث سنة خمس وتسعين الهجرية الذي ورد فيه ذكر فتوح العباس ، بل جاء فتحها منفصلاً ، ولو أن العباس فتحها في هذه السنة لجاء ذكر الفتح مع فتوحه الأخرى لا منفصلاً عنها ، وفي سياق أحداث أخرى ، ومن المحتمل أن الامام الطبري تحدث عن فتح آخر لمدينة أخرى أو منطقة أخرى ، فاشتبه ذلك على النساخ فوق الخطأ الذي لا يقع في مثله الطبري أبداً .

ولم يرد لهذا الفتح في هذه السنة ذكر في المصادر التاريخية الأخرى .

ز . وفي سنة ثلاث ومئة الهجرية (٧٢١م) غزا العباس أرض الروم ، ففتح مدينة (رسلّة) (٥٢) أو (دلة) (٥٣) أو (آواسي) (٥٤) ، ولا ذكر لهذه

(٤٩) قنسرين : بلد في أرض الشام جنوب حلب ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٦٨/٧) والمسالك والممالك للاصطخري (٤٦) وتقويم البلدان (٢٦٦ - ٢٦٧) والبلدان لليقوبي (٣٦٢) والاطلاق النفيسة (٩١) واحسن التقاسيم (١٥٤) وصورة الأرض (١٦٣) ومختصر كتاب البلدان (١١١) والمسالك والممالك لابن خردادبة (٧٥) .

(٥٠) الطبري (٤٩٢/٦) .

(٥١) ابن الأثير (٤٩١/٢ - ٤٩٢) ، وقد جاء في معجم البلدان (١٦٨/٧) : أنها فتحت سنة سبع عشرة الهجرية ، وهذا خطأ ، وانظر كتابنا : قادة فتح الشام ومصر (٦٣) حول فتح هذه المدينة .

(٥٢) الطبري (٦١٩/٦) وابن خلدون (٢٨٤/٢) وانظر تاريخ ابن خياط (٣٣٦/١) ولم يذكر فيه اسم المدينة التي فتحها ، والنجوم الزاهرة (٢٥١/١ - ٢٥٢) .

(٥٣) ابن الأثير (١٠١/٥) و (١٠٥/٥) .

(٥٤) تاريخ الموصل (١٧) .

المدينة بأسمائها الثلاثة في المصادر الجغرافية التي بين أيدينا .

وقد ذكر للعباس غزوة في أرض الروم سنة اثنتين ومئة الهجرية (٥٥) (٧٢٠م) ، ولا صحة لذلك ، لأنه كان في تلك السنة يقاتل يزيد بن المهلب في العراق ، كما سيرد تفصيل ذلك وشيكا .

كما ذكرت له غزوة بحريّة الى (خراسان) سنة ثلاث ومئة الهجرية (٧٢١م) ، ولا صحة لذلك أيضاً ، لأنه كان يغزو في تلك السنة الروم كما ذكرنا .

لقد كان لجهاد العباس اثر بارز في حماية الحدود الشمالية الغربية للدولة بالهجوم على الروم ، والهجوم انجع وسائل الدفاع .

٢ . في توطيد الأمن الداخلي

١ . في سنة مئة الهجرية (٧١٨م) كتب عمر ابن عبدالعزيز رضي الله عنه إلى عدريّ بن أرطاة والي (البصرة) لعمر (٥٦) ، يأمره بإنفاذ يزيد بن المهلب بن أبي صفرة إلى (دمشق) موثقاً . وكان عمر بن عبدالعزيز قد كتب إلى يزيد أن يستخلف على عمله ويتقبل إليه ، فاستخلف ابنه مختلداً وقدم من (خراسان) (٥٧) ونزل (واسطاً) (٥٨) ، ثم ركب السفن يريد (البصرة) ، فبعث عدريّ ابن أرطاة إليه موسى بن الوجيه الحميريّ ، فلقه في نهر (معقل) (٥٩) عند الجسر ، فأوثقه وبعث به إلى عمر بن عبدالعزيز في (دمشق) .

(٥٥) ابن الأثير (١٠١/٥) وابن خلدون (٢٨٤/٢) .

(٥٦) جمهرة انساب العرب (٢٥٦) .

(٥٧) خراسان : بلاد واسعة تتاخم العراق من الغرب ، وأفغانستان والهند من الشرق ، وتقع (كرمان) و (سجستان) الى جنوبها ، وتمتد من الشمال الى تخوم ايران . من امهات مدنها : نيسابور وهراة ومرو وبلغ ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك للاصطخري (١٤٥-١٦٠) ، ومعجم البلدان (٤٠٧/٣) .

(٥٨) واسط : مدينة كبيرة بناها الحجاج بن يوسف الثقفي ، وسميت : واسطاً ، لأنها متوسطة بين البصرة والكوفة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٧٨/٨ - ٢٨٧) ، وقد أطلق اسم : واسط ، على محافظة من محافظات العراق الحديث ، وهي محافظة : الكوت (سابقاً) التي تقع على نهر دجلة .

(٥٩) نهر معقل : منسوب الى معقل بن يسار المزني رضي الله عنه ، صاحب النبي صلى الله عليه وسلم ، وهو نهر معروف بالبصرة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان

هروب يزيد بن المهلب من سجنه سنة إحدى ومئة
الهجرية (١٢) (٧١٩ م) .

وكتب يزيد بن عبد الملك بعد توليه الخلافة
الى عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب
عامله على (الكوفة) ، وإلى عدي بن أرطاة عامله
على (البصرة) ، يأمرهما بالتحرز من يزيد بن
المهلب ويعرفهما هربه ، وأمر عدياً أن يأخذ
من (البصرة) من آل المهلب ويحبسهم ،
فأخذهم عدي وحبسهم .

واقبل يزيد بن المهلب حتى ارتفع إلى
(القنطرة) (١٣) ، وبعث عبد الحميد بن عبد
الرحمن بن زيد بن الخطاب جنداً إليهم عليهم
هشام بن مساحق العامري القرشي - عامر
بنى لؤي - ، فساروا حتى نزلوا (العديبة) (١٤)
ومر يزيد بن المهلب قريباً من جند عبد الحميد ،
فلم يقدموا عليه .

ومضى يزيد بن المهلب نحو (البصرة) وقد
جمع عدي بن أرطاة أهل (البصرة) وخذل
عليها ، وبعث على خيل (البصرة) المغيرة بن
عبد الله بن أبي عقيل الثقفي .

وبعث عدي بن أبي أرطاة على كل خمس
من أخماس (البصرة) رجلاً : خميس الأزدي ،
وخميس تميمي ، وخمس بكر بن وائل ، وخمس
عبد القيس ، وخمس العالية من قریش وكنانة
والأزد وبجيلة وخثعم وقينس عيلان كلها
ومزينة ، فأقبل يزيد بن المهلب لا يمر بخيل ولا
قبيلة من قبائلهم ، إلا تنحوا له عن طريقه ، حتى
نزل داره في (البصرة) .

واختلف الناس إلى يزيد بن المهلب ، فأرسل
إلى عدي بن أرطاة : « أن ابعث إلى إخوتي ، وأني
أصالحك على (البصرة) وأخليك وإياها حتى آخذ
لنفسى من يزيد ما أحب » .

ودعا عمر بيزيد ، فسأله عن مصر الأموال
التي كتب بها إلى سليمان بن عبد الملك ، فقال :
« كنت من سليمان بالمكان الذي رأيت ، وإنما
كتبت إلى سليمان ، لا سمع الناس به ، وقد علمت
أن سليمان لم يكن ليأخذ به ! » ، فقال عمر : « لا
أجد في أمرك إلا حبسك ، فاتق الله وأد ما قبلك ،
فإنها حقوق المسلمين ولا يسعني تركها » .

وحبس عمر بن عبد العزيز ابن المهلب بحصن
(حلب) ، وبعث إلى الجراح بن عبد الله الحكمي
فسرّحه إلى (خراسان) أميراً عليها ، فبقى يزيد
ابن المهلب في محبسه حتى بلغه مرض عمر بن عبد
العزيز (١٥) .

ولما اشتد مرض عمر بن عبد العزيز رضى
الله عنه ، خاف يزيد بن المهلب موت عمر وتولى
يزيد بن عبد الملك الخلافة من بعده ، وكان بين
اليزيديين : ابن عبد الملك وابن المهلب عداوة
شخصية قبل أن يتولى الخلافة يزيد بن عبد الملك ،
وقد توعد كل منهما صاحبه (١٦) ، لذلك أرسل
يزيد بن المهلب إلى مواليه يخبرهم بعزمه على
الهرب من سجنه في (حلب) ، فأعدوا له إبلاً
وخيلاً . وواعدتهم مكاناً يأتيهم فيه ، وبعث إلى
قائد الحرس الذي يحفظونه وإلى الحرس مالا ،
وقال : « إن أمير المؤمنين - عمر بن عبد العزيز -
قد ثقل وليس برجاء ، وإن ولي يزيد بن عبد الملك
يسفك دمي » ، فأخرجوه فهرب إلى المكان الذي
واعد أصحابه فيه ، وامتطى هناك الدواب ، وقصد
(البصرة) . وكتب إلى عمر بن عبد العزيز كتاباً يقول
فيه : « إني والله لو وثقت بحياتك ، لم أخرج من
محبسك ، ولكني خفت أن يلي يزيد فيقتلني شر
قتلة » ، فورد هذا الكتاب وعمر بن العزيز رمق ،
فقال : « اللهم إن كان يريد بالمسلمين سوءاً
فألحقه به وهضه » ، فقد هاضنى ، وكان

(٢٤٥/٨ - ٢٤٦) وفيه : أن عمر بن الخطاب أمر أبا

موسى الأشعري رضي الله عنهما ، أن يحفر نهراً بالبصرة ،
وأن يجريه على يد معقل بن يسار ، فتسب النهر إلى
معقل . ولا يزال النهر موجوداً حتى اليوم ، وعليه
صاحبة (المعقل) التي هي من ضواحي البصرة حالياً ،
تقع شمالي البصرة وبالقرب منها ، وهي معروفة جداً في
الوقت الحاضر ، يقصدها السائحون خاصة في أيام
الشتاء ، وفيها مناظر خلابة جميلة .

(١٥) الطبري (٥٥٦/٦ - ٥٥٨) وابن الأثير (٥٨٠/٥) ،
وانظر كتاب الوزراء والكتاب (٢١) .

(١٦) ابن الأثير ٥ : ٥٧ .

(١٢) انظر التفاصيل في الطبري (٥٦٢/٦ - ٥٦٥) وابن الأثير

(٥٨٠/٥) وابن خلدون (١٦٦/٢) .

(١٣) القنطرة : موضع بالقرب من الكوفة من جهة البرية
بأنطف ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٢٥/٧) .

(١٤) العديبة : ماء بين القادسية والقيصة ، بينه وبين
القادسية أربعة أميال ، انظر التفاصيل في معجم
البلدان (١٢١/٦) . والقيصة : منزل في طريق مكة
بعد العديبة نحو مكة ، انظر التفاصيل في معجم
البلدان (١٠٦/٨) .

وسار حميد بن عبد الملك بن المهلب إلى
يزيد بن عبد الملك ، فبعث معه يزيد بن عبد الملك
خالداً القسري وعمر بن يزيد الحكمي بآمان
يزيد بن المهلب وأهله .

واخذ يزيد بن المهلب يعطي من آتاه قطع
الذهب والفضة ، فمال الناس إليه ، وكان عدي
ابن أرطاة لا يعطي إلا درهمين لكل رجل
من أصحابه ، ويقول : « لا يحل لي أن أعطيكم من
بيت المال درهماً إلا » بأمر يزيد بن عبد الملك ، ولكن
تبكفوا بهذه حتى يأتي الأمر بذلك من يزيد » ، وفي
ذلك يقول الفرزدق :

اظنّ رجال الدرهمين تقودهم
إلى الموت آجال لهم ومصارع
واكيسنهم من قر في قصر بيته
وايقن أن الموت لابد واقع

وخرجت بنو عمرو بن تميم من أصحاب
عدي بن أرطاة أمير (البصرة) ، فنزلوا (المربد) (٦٥)
، فبعث إليهم يزيد بن المهلب مولى له يقال له :
دارس ، فحمل عليهم ، فهزمهم .

وخرج يزيد بن المهلب حين اجتمع الناس له ،
حتى نزل جبانة بني يشكر ، وهي النصف فيما
بينه وبين قصر الأمانة ، فلقه قيس وتميم وأهل
الشام . واقتتلوا هنية ثم حمل عليهم أصحاب
ابن المهلب ، فانهزموا .

وتبعهم ابن المهلب حتى دنا من قصر الأمانة
في (البصرة) ، فخرج عليهم عدي بن أرطاة بنفسه ،
ولكن أصحابه انهزموا بعد قتال تكبدوا فيه
خسائر كبيرة .

وجاء يزيد بن المهلب حتى نزل داراً إلى جنب
القصر ، وأتى بالسلاطمة وفتح القصر . وأتى بعدي
ابن أرطاة فحبسه ، وقال له : « لولا حبسك إخوتي
لما حبستك » .

ولما ظهر يزيد بن المهلب ، هرب رءوس أهل

(٦٥) الربد : مريد البصرة من أشهر محالها ، وكان يكون
فيه سوق الأبل قديماً ، ثم صار محلة كبيرة ، سكنها
الناس ، وبه كانت مفاخرات الشعراء ، انظر التفاصيل
في معجم البلدان (١٢-١١/٨) .

(البصرة) من تميم وقيس وغيرهما ، فلتحقوا
بالكوفة ، ولحق بعضهم بالشام .

وخرج المغيرة بن زياد العتكي نحو
الشام ، فلقى خالداً القسري وعمر بن يزيد
الحكمي ومعهما حميد بن عبد الملك بن المهلب ،
قد أقبلوا بآمان يزيد بن المهلب وكل شيء أراد ،
فسأله عن الخبر ، فخلا بهما سرا من حميد ،
واخبرهما بأن ابن المهلب قد ظهر على (البصرة) ،
وقتل القتلى ، وحبس عدياً ، ونصحهما بالرجوع
إلى الشام ، فأخذاً بنصيحتهم ورجعا ، وأخذاً
حميداً معهما ، فقال لهما حميد : « انشدكما
الله أن تخالفا ما بعثتما به ، فإن ابن المهلب
قابل منكما ، وإن هذا أهل بيته لم يزالوا لنا
أعداء ، فلا تسمعا مقاتله » ، فلم يقبلا قوله ورجعا
به !!!

واخذ عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن
الخطاب أمير الكوفة خالد بن يزيد بن المهلب
وحمال بن زحر ، ولم يكونا في شيء من الأمر ،
فاوثقهما وسيّرهما إلى الشام ، فحبسهما يزيد بن
عبد الملك ، ولم يفارقا السجن حتى هلكا فيه .

وأرسل يزيد بن عبد الملك شيئاً من الأموال
إلى (الكوفة) لتفرق على أهلها ، ومنأهم الزيادة
في العطاء . (٦٦)

وأصبح الموقف في (العراق) خطيراً للغاية ،
لا يمكن معالجته بالقوات المتيسرة فيه والموالية
للدولة الأموية ، فلا بد من تدخل الخليفة بقواته
المركزية الضاربة التابعة للدولة ، لمعالجة هذا الموقف
الخطير المتدهور ، قبل استفحاله في (العراق)
وترسيخ أقدامه وتوسعه إلى أقطار الدولة الأخرى .

فماذا فعل يزيد للقضاء على ثورة ابن المهلب ؟

ب . جهز يزيد بن عبد الملك أخاه مسلمة
ابن عبد الملك وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد
الملك في سبعين ألف مقاتل من أهل الشام و (جزيرة
ابن عمر) ، وقيل : كانوا ثمانين ألفاً ، فساروا
إلى (العراق) ، وقدموا (الكوفة) ونزلوا بـ

(٦٦) انظر التفاصيل في الطبري (٥٧٨-٥٨٥) وابن الأثير
(٧١-٧٢) وابن خلدون (١٦٦-١٦٨) ، وانظر
خلاصة الذهب السبوك (٢٦) .

(النخيلة) (٦٧) ، وكان ذلك سنة إحدى ومئة الهجرية .

ولما سمع أصحاب ابن المهلب بوصول مسلمة والعباس وأهل الشام و (الجزيرة) ، راعهم ذلك ، فبلغ ابن المهلب ، فخطب الناس يشجعهم ويهوين من أمر أهل الشام ، وكان الحسن البصري رضى الله عنه يسمع ، فرفع صوته قائلاً : « والله لقد رأيتك والياً ومولئى عليك ، فما ينبغى لك ذلك » ، فوثب أصحاب الحسن وأخذوا بقمه وأجلسوه . وكان النضر بن أنس بن مالك يشبط أهل (البصرة) كما يشبطهم الحسن البصري ، منعاً لاقتتال المسلمين فيما بينهم وقطعاً لدابر الفتن .

وسار يزيد بن المهلب من (البصرة) ، واستعمل عليها أخاه مروان بن المهلب ، فأتى مدينة (واسط) وأقام بها أياماً ، فخرجت سنة إحدى ومئة الهجرية . (٦٨)

وكان الموقف العسكري خلال هذه السنة يتلخص : سيطرة ابن المهلب على (البصرة) سيطرة كاملة ، وتقدمه بقواته إلى (النخيلة) بالقرب من (الكوفة) من جهة ، وبقاء (الكوفة) تحت سيطرة بنى أمية ، واندفع العباس على رأس أربعة آلاف فارس بسرعة فائقة إلى (الحيرة) (٦٩) يبادر إليها يزيد بن المهلب ، فسيطر العباس على منطقة (الحيرة) وجعلها قاعدة متقدمة للعمليات العسكرية بالنسبة للأمويين ، بينما سيطر مسلمة بن عبد الملك على (الجزيرة) وشاطئ الفرات ، ثم انطلق في طريقه إلى العراق باتجاه (الحيرة) نحو قوات يزيد بن المهلب (٧٠) .

لقد كان لمبادرة العباس بالسيطرة على منطقة (الحيرة) وجعلها قاعدة متقدمة للعمليات العسكرية المقبلة ، أثر حاسم في حماية قوات مسلمة المتقدمة نحو العراق ، مما حرم ابن المهلب من محاولة عرقلة

(٦٧) النخيلة : موضع بالقرب من الكوفة على سمت الشام ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٧٦/٨ - ٢٧٧) .

(٦٨) انظر التفاصيل في الطبري (٥٧٥/٦ - ٥٨٩) وابن الأثير (٧٢/٥ - ٧٧) وابن خلدون (١٦٢/٣ - ١٦٩) .

(٦٩) الحيرة : مدينة كانت على ثلاثة أميال من الكوفة ، على موضع يقال له : (النجف) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٨٦/٣) . والنجف بلد معروف في الوقت الحاضر ، بالقرب من مدينة الكوفة التي تقع على الفرات بينما يقع النجف في الصحراء .

(٧٠) الطبري (٥٨٥/٦) .

تقدم تلك القوات نحو هدفها ، وعجل بتقديمها دون إزعاج قوات ابن المهلب لها ، كما ضمن لقوات الأمويين الزاحفة قاعدة متقدمة رصينة ، تركز عليها في عملياتها العسكرية بسهولة ويسر وأمان وحماية .

ودخلت سنة اثنتين ومئة الهجرية (٧٢٠م) ، فسار يزيد بن المهلب من (واسط) ، واستخلف عليها ابنه معاوية ، وجعل معه بيت المال والأسرى ، وسار على قم (النخيل) (٧١) حتى نزل (العقر) (٧٢) وقدم أخاه عبد الملك بن المهلب نحو (الكوفة) ، فاستقبله العباس بن الوليد بن عبد الملك بـ (سورا) (٧٣) ، فاقتتلوا قتالاً شديداً : كانت الجولة الأولى من المعركة لصالح ابن المهلب ، ولكن ثبات العباس ورجاله غير نتيجة المعركة لصالح الأمويين ، فكانت الجولة الثانية لصالحهم ، وانكشف جيش ابن المهلب ، وانهزموا عائدين إلى يزيد بن المهلب .

وبذلك ارتفعت معنويات الأمويين ، وتزعزعت معنويات قوات آل المهلب .

وكان مسلمة وقواته في مرحلة مسير الاقتراب ، فسار على طريق شاطئ (الفرات) إلى (الأنبار) (٧٤) ، فعقد عليها الجسر وعبر ، ثم سار حتى نزل على ابن المهلب .

وأتى إلى يزيد بن المهلب ناس من أهل (الكوفة) كثير ومن الثغور ، فقسّمهم أقساماً ، وجعل على كل قسم منهم قائداً ، وكان هذا التقسيم بالنسبة للقبائل العربية كما كان متبعاً في تلك

(٧١) النيل : بليدة في سواد الفرات قرب (حلة) بني مزيد ، يفترقها خليج كبير يتغلج من الفرات الكبير ، انظر معجم البلدان (٢٦٠/٨) . والنيل نهر وبلد معروف بارض (بابل) العراق ، مخرجه من الفرات وعليه قرى كثيرة ، حفره الحجاج بن يوسف الثقفي ، وسماه بنيل مصر ، والنيل نهراً نسب إلى مدينته العرولة ، انظر التفاصيل في : المشترك وضعاً والمفترق صقلاً (٢٢٠) . ومدينة (الحلة) مدينة معروفة تقع بالقرب من أطلال (بابل) القديمة .

(٧٢) العقر : مقر بابل ، قرب (كربلاء) من الكوفة ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٦٤/٦ - ١٦٥) والمشارك وضعاً والمفترق صقلاً (٢١٢) .

(٧٣) سورا : موضع بارض (بابل) ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (١٦٨/٥) .

(٧٤) الأنبار : مدينة على الفرات في غرب بغداد ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٢٠/١ - ٢٢٢) . وهي مدينة (اللوجة) كما تسمى اليوم .

الأيام : الأزْد ، ومَذْحِج ، وآسَد ، وكِنْدَةَ ، وربِيعَةَ ، وتَمِيم ، وهَمْدَان ، وجعل على كل قسم من هذه الأقسام رئيس القبيلة ، وجعل أمر كل تلك الأقسام إلى أخيه الْمُفَضَّل بن المهَلَّب .

وأحصى ديوان يزيد بن المهَلَّب ، فكان تعداد رجاله مئة ألف وعشرين ألفاً ، فقال يزيد :

« لَوَدِدْتُ أَنْ لِي بِهِمْ مَنْ بـ (خُرَاسَان) مِنْ قَوْمِي » ، ثم خطب أصحابه وحرّضهم على القتال .

وكان عبد الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب ، قد عسكر بـ (النَخِيلَة) ، وشقّ المياه ، وجعل على المتخلفين من أهل (الكوفة) الأرصاد ، لئلا يخرجوا إلى يزيد بن المهَلَّب ، وبعث بعثاً إلى مسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد بن عبد الملك مع سَبْرَةَ بن عبد الرحمن بن منخيف ، ولكن مسلمة عزل عبد الحميد عن (الكوفة) ، واستعمل عليها محمد بن عمرو بن الوليد بن أبي المعَيْط ، وهو ذو الشامة . (٧٥)

ومن الواضح أن عبد الحميد ، لم يكن مسيطراً على (الكوفة) ، لذلك تسرب كثير من الكوفيين إلى معسكر يزيد بن المهَلَّب كما لم يكن ذا موهبة قيادية لابد أن يتسم بها وال كبير كوالى (الكوفة) أهم المدن العراقية حينذاك ، في مثل تلك الاضطرابات الخطيرة التي تجتاح العراق وتهدد مصر الدولة الأموية بأوخم العواقب . وكان لا يتحلى بمزية : المبادرة ، فانتخذ موقفاً دفاعياً منسحباً عند وصول يزيد بن المهَلَّب إلى العراق وسيطرته على (البصرة) ، فكان عليه أن يبادر إلى مصادولته قبل أن يستفحل أمره ويفرض سيطرته على (البصرة) ، ويصبح خطراً داهماً على الدولة وكان متردداً ، فضيع الفرصة السانحة للقضاء على ابن المهَلَّب قبل أن يستشري خطره ، لذلك عزله مسلمة بن عبد الملك عن (الكوفة) ، وولى قائداً متميزاً عليها ، ليضمن أهم قاعدة أممية من قواعده في العراق .

ج . وجمع يزيد بن المهَلَّب رعوس أصحابه ، فقال : « قد رأيت أن أجمع اثني عشر ألفاً ، فأبعثهم مع أخى محمد بن المهَلَّب حتى يبيتوا مسلمة ، ويحملوا معهم البراذع والأكف والزبيل لدفن خندقهم ، فيقاتلهم على خندقهم بقيّة ليلته ،

(٧٥) الطبري (٥٩٠-٥٩٢) وابن الأثير (٧٩٠-٨٠٠) وابن خلدون (١٦٨-١٦٩) والعيون والحدائق (٦٨-٦٩) .

وامدّه بالرجال حتى أصبح ، فأذا أصبحت نهضت إليهم في الناس فأناجزهم ، فأنى أرجو عند ذلك أن ينصرنا الله عليهم » ، فأجابه أحد أصحابه (٧٦) قائلاً : إنا قد دعوناهم إلى كتاب الله وسنة نبيّه صلى الله عليه وسلم ، وقد زعموا أنهم قبلوا ذلك منا ، فليس لنا أن نمكر ولا نفدر حتى يردّوا ما زعموا أنهم قبلوه منا ، فثنى على قوله آخر (٧٧) قائلاً : « صدق ! هكذا ينبغي ! » ، فقال يزيد بن المهَلَّب : « ويحكم ! ... إنهم يخادعونكم ليكمروا بكم ، فلا يسبقوكم إليه . إني لقيت بنى مروان ، فما لقيت منهم أمكر ولا أبعد غوراً (٧٨) من هذه الجراداة الصفراء » ، يعنى : مسلمة بن عبد الملك الذى كان يلقب بالجرادة الصفراء ، فقالوا : « لا نفعل ذلك حتى يردّوا علينا ما زعموا أنهم قبلوه منا » .

وكان مروان بن المهَلَّب بالبصرة يحث الناس على حرب أهل الشام ، والحسن البصرى يشبطهم ، فهدد مروان الحسن بالعقوبة الصارمة وتوعّده ، فقال الحسن : « والله ما أكره أن يكرمنى الله بهوانه (٧٩) » . فقال ناس من أصحاب الحسن : « لو أرادك ، ثم شئت لمنعناك » فقال لهم : « فقد خالفتمكم إذا إلى ما نهيتكم عنه !! آمركم ألا يقتل بعضكم بعضاً مع غري ، وأمركم أن يقتل بعضكم بعضاً دونى ! » .

وكان اجتماع يزيد بن المهَلَّب ومسلمة بن عبد الملك والعباس بن الوليد بن عبد الملك ثمانية أيام فلما كان يوم الجمعة لأربع عشرة مضت من صفر سنة اثنتين ومئة الهجرية بعث مسلمة من يحرق الجسر ، وكان طريق انسحابهم الوحيد في حالة اندحاره ، ليظهر قراره الحاسم لرجال له وأعدائه على حد سواء ، بأنه قرّر القتال لآخر رجل من رجاله وآخر رمق ، فأما النصر أو الموت في ساحة الاقتتال .

وخرج مسلمة فعباً جنود أهل الشام : جعل على ميمنته جبلة بن مخرمة الكندي ، وعلى ميسرته الهذيل بن زفر بن الحارث الكلابي .

(٧٦) هو رؤبة راس الطائفة المرجنة ، ومعه أصحاب له .
(٧٧) اسمه : السَّمَيْدَع الكندي من بني مالك بن ربيعة من ساكني (عمان) ، كان يرى رأي أهل الخوارج ، فبعث إليه يزيد بن المهَلَّب ودعاه الى نفسه ، فأجابه ، انظر الطبري (٥٨٣/١) .
(٧٨) الطبري (٥٩٢/٦) ، وفي ابن الأثير (٨٠/٥) : غدرا .
(٧٩) يريد : بعقوبته وتوعده .

وقد قتل يزيد وحبيب ومحمد وانهزم الناس منذ
أمد طويل !

ومضى المفضل إلى (واسط) ، ولم يكن في
العرب أضرب بسيف ولا أحسن تعبئة للحرب ولا
أغشى للناس منه .

وقيل : بل اتاه أخوه عبد الملك ، وكره أن
يخبره بقتل يزيد فيستقتل ، فقال له : « إن
الأمير قد انحدر إلى (واسط) ، فانحدر المفضل
بمن بقي معه من ولد المهلب إلى (واسط) ، فلما
علم بقتل يزيد حلف أنه لا يكلم عبد الملك أبداً ، فما
كلمته حتى قتل ب (قنندابيل) (٨٠) . وكانت عينه
قد أصيبت في الحرب ، فقال : « فضحني عبد الملك
! ما عذري إذا رآني الناس فقالوا : شيخ أعور
مهزوم ! ألا صدقني فقتلت ؟ » ، ثم قال :

« ولا خير في طعن الصناديد بالقنا

ولا في لقاء الحرب بعد يزيد »

فلما فارق المفضل المعركة ، جاء عسكر
الشام إلى عسكر يزيد ، وأسر مسلمة والعباس
نحو ثلاثمائة أسير ، فسرحهم مسلمة إلى (الكوفة)
، فحبسوا بها . وجاء كتاب يزيد بن عبد الملك إلى
محمد بن عمرو بن الوليد بن عقبة والي (الكوفة)
بأمره بضرب أعناق الأسرى ، فبدأ محمد بالتنفيذ
وقتل قسماً من الأسرى ، فجاءه رسول بكتاب من
عند مسلمة بن عبد الملك يأمره بالتوقف عن قتل
الأسرى ، ثم أقبل مسلمة حتى نزل (الحيرة) .

ولما أتت هزيمة يزيد بن المهلب إلى (واسط)
، غادرها آل المهلب إلى (البصرة) ، ومن هناك
حملوا عيالاتهم وأموالهم في السفن البحرية ، ثم
لجوا في البحر ، فلما كانوا بجبال (كرمان) (٨١) ،
خرجوا من سفنهم وحملوا عيالاتهم وأموالهم على
الدواب ، وكان المقدّم عليهم المفضل بن المهلب .

وكان ب (كرمان) فلول كثيرة اجتمعوا إلى
المفضل ، فبعث مسلمة قوات من أصحابه ،
فقاتلوا فلول المفضل وانتصروا عليهم وكبدوهم
خسائر فادحة بالاموال والأرواح .

(٨٠) قنندابيل : مدينة بالسند ، انظر التفاصيل في معجم
البلدان (١٦٧/٧) .

(٨١) كرمان : ولاية مشهورة وناحية كبيرة معمورة ، ذات
قرى وبلاد واسعة في إيران ، انظر التفاصيل في معجم
البلدان (٢٤١/٧) والمسالك والممالك للاصطخري
(١٧-١٠٠) .

وجعل العباس على يمينته سيف بن هانيء
الهمداني ، وعلى يسارته سويد بن القعقاع
التميمي .

وكان مسلمة على الناس قائداً عاماً .

وخرج يزيد بن المهلب فعباً رجاله أيضاً :
جعل على يمينته حبيب بن المهلب ، وعلى يسارته
المفضل بن المهلب .

وقرب مسلمة بجموعه من جموع يزيد بن
المهلب ، فالتحم الجمعان .

ووقت مسلمة بن عبد الملك موعد إحراق
الجسر ببداية نشوب الاقتتال وقبل اشتداده ، فلم
يكد التماس الأول يبدأ بالمبارزة ، إلا وألهب النار
في الجسر الموكل بأحراقه ، فسطع دخانه ، وقد
أقبل الناس ونشبت الحرب ولم يشتد الاقتتال ؛
فلما رأى الناس الدخان ، وقيل لهم : أحرق
الجسر ، فانهزم أصحاب يزيد ابن المهلب ، فقل
له : قد انهزم الناس ! فقال : « مِمَّ انهزموا ! ؟
هل كان قتال ينهزم من مثله ! ؟ » ، فقل له :
أحرق الجسر ، فلم يثبت أحد ! فقال : « قبّحهم
الله ! بقى دخن عليه فطار ! » . ثم خرج ابن
المهلب معه أصحابه ، فقال : « اضربوا وجوه
المنهزمين » ، ففعلوا ذلك بهم حتى كسروا عليه ،
واستقبله أمثال الجبال : « دعوهم فوالله إنى
لأرجو أن لا يجمعنى وإياهم مكان أبداً . . . دعوهم
يرحمهم الله أغنم عدا في نواحيها الدّئب » .

ونزل يزيد بن المهلب يقاتل ، فجاءه من ينعى
إليه أخاه حبيباً الذي قتل في المعركة ، فقال يزيد :
« لا خير في العيش بعده ، قد كنت أبغض الحياة بعد
الهزيمة ، وقد ازددت لها بغضاً . . . امضوا
قدماً » ، ففعلوا أنه قد استقتل ، لذلك تسلل
عنه من يكره القتال ، وبقي معه جماعة حسنة ،
وهو يتقدم ، فكلما مرّ بخيل كشفها ، أو جماعة
من أهل الشام عدلوا عنه .

وأقبل يزيد نحو مسلمة لا يريد غيره ، فلما
دنا منه أدنى مسلمة فرسه ليركب ، فعطفت على
يزيد خيول أهل الشام وعلى أصحابه ، فقتل يزيد
ومحمد بن المهلب .

وكان المفضل بن المهلب يقاتل أهل الشام ،
وما يدري بقتل يزيد ولا بهزيمة الناس ، وكان كلما
حمل على جند الشام انهزموا عنه ، ولكن أصحابه
تخلوا عنه وهو يقاتل ، فقل له : ما تصنع ها هنا ،

وميسرته وكانت للعباس ميمنته وميسرته أيضاً ،
في معركة (العقر) التي قتل فيها يزيد ابن المهلب ،
بالرغم من أن مسلمة كان على الجيش كله قائداً
عاماً كما أسلفنا .

د . لقد انتصر مسلمة والعباس في معركة
(العقر) الحاسمة ، ففضيا قضاء مبرماً على ثورة
يزيد ابن المهلب ، وبذلك خدما الدولة الأموية
خدمة عظيمة ، لأن ابن المهلب خلع يزيد بن عبد الملك
وقاد خطر ثورة هدّدت كيان الأمويين .

ومن الانصاف أن نذكر أن يزيد بن المهلب
وكثيراً من إخوته وأبنائه وأبنائهم ، كانوا قادة
أفذاً وإداريين حازمين وأبطالاً مقاتلين ، فخرت
الدولة الأموية بالقضاء عليهم خيرة قادتها وأقدر
ولاتها وأشجع رجالها .

وقد ترك يزيد بن المهلب وآل بيته أثراً
عظيماً في الناس أحياء وأمواتا .

وبالرغم من نقمة يزيد بن عبد الملك وأهله على
آل المهلب وحقدهم عليهم ، إلا أنهم وجدوا من
يصونهم بعد قتلهم ، حتى من بني أمية أنفسهم ،
فقد منع مسلمة قتل أسراهم خلافاً لأمر يزيد بن
عبد الملك (٨٥) ، كما وجدوا حتى من بني أمية من
يبيعهم لأنه أقسم أن يفعل ذلك ، ولكنه يبيعهم لمن
يطلق سراحهم ثم لا يتقاضى أثمانهم (٨٦) ، لينفذ
قسمه (شكلاً) ولا (واقعا) .

كما وجدوا من يستشفع لهم بعد نكبتهم ،
فقد قدم على يزيد بن عبد الملك بالأسرى من بني
المهلب وعنده كثير عزّة فأنشد :

حليم إذا ما نال عاقب منجماً

أشدّ العقاب أوعفا لم يثرب (٨٧)

ففعوا أمير المؤمنين وحسبة (٨٨)

فما تأتته من صالح لك يكتب

أساءوا فأن تصفح فأنت قادر

وأفضل حلم حسبة حلم مغضب (٨٩)

(٨٥) الطبري (٥٩٩/٦) وابن الأثير (٨٤/٥) .

(٨٦) الطبري (٦٥٢/٦) .

(٨٧) الرب : أفسد وخلط . وثرب فلان ، وعليه : لأمه
وعيّره بذنبه . وفي التنزيل العزيز : (لا تريب عليكم
اليوم) . ويقال : ثرب عليهم ، وثرب عليهم فعلهم :
فبحه .

(٨٨) فعله حسبة : مدخراً أجره على الله .

(٨٩) ابن الأثير (٨٧/٥) .

ومضى آل المهلب ومن بقي معهم إلى
(قنندابيل) ، ، فطاردهم أصحاب مسلمة بن
عبد الملك إلى هناك ، ففرّق الناس عن آل المهلب ،
ولكن آل المهلب تقدموا بأسياهم فقاتلوا حتى
قتلوا عن آخرهم ، منهم : الفضل ، وعبد الملك ،
وزياد ، ومروان بنو المهلب ، وثلاثة من أبنائهم ،
فبعث مسلمة برعوسهم إلى يزيد بن عبد الملك .

وحين بلغ يزيد بن عبد الملك مقتل يزيد بن
المهلب وكثير من إخوته وأبنائهم من آل المهلب ،
سره هذا النصر سروراً عظيماً (٨٢) .

ولما فرغ مسلمة بن عبد الملك من حرب يزيد
ابن المهلب ، جمع له أخوه يزيد بن عبد الملك ولاية
(الكوفة) و (البصرة) و (خراسان) ، وذلك
سنة اثنتين ومئة الهجرية (٨٢) .

أما العباس فقد عاد من العراق أدراجه إلى
(حلب) ، فقد ورد أن مسلمة بن عبد الملك بعث
برعوس قتل آل المهلب إلى يزيد بن عبد الملك في
الشام ، فسيّروهم يزيد إلى العباس في (حلب) (٨٤) ،
ويبدو أنه كان على (حلب) قبل الاقتتال مع يزيد
ابن المهلب ، فعاد إليها بعد أن وضعت الحرب
أوزارها ، ولكن المؤرخين لم ينصوا على ذلك فيما
سجلوه في كتبهم التاريخية المتيسرة ، بل ذكروا
أن يزيد بن عبد الملك جهّز أخاه مسلمة بن عبد الملك
وابن أخيه العباس بن الوليد بن عبد الملك في سبعين
ألف مقاتل من أهل (الشام) و (الجزيرة) كما
ذكرنا ، ومن المعلوم أن (حلب) من (الجزيرة)
حسب التقسيمات الإدارية والجغرافية القديمة ،
وهذا يدل على أن مسلمة كان على أهل (الشام)
والعباس كان على أهل (الجزيرة) في الجيش
الزاحف إلى العراق للقضاء على ثورة يزيد بن
المهلب ، ويفسر لنا لماذا كانت لمسلمة ميمنته

(٨٢) انظر التفاصيل في الطبري (٦٠٤-٥٩٠/٦) وابن
الاثير (٨٩-٧٧/٥) وابن خلدون (١٧٢-١٦٦/٣) ،
وانظر مروج الذهب (٢٠٠-١٩٩/٣) وتاريخ الوصل
(١٦-١٠) والمعارف (٤٠٠) والعيون والعدائيق
(٧٠-٦٨) وجمهرة أنساب العرب (٨٩) ، وفي معجم
الشعراء (٢٦٤) أن العباس كان على مقدمة مسلمة
يوم العقر .

(٨٣) الطبري (٦٠٤/٦) وابن الأثير (٨٩/٥) ، وانظر
المعارف (٥٧١) وفيه : أن مسلمة كان من أول من
جمع له المصرا : الكوفة والبصرة ، وانظر التنبيه
والإشراف (٢٧٨-٢٧٧) .

(٨٤) الطبري (٦٠٢/٦) وابن الأثير (٨٦/٥) وابن خلدون
(١٧٢/٣) .

وهذا موقف جريء جداً بالنسبة للشاعر ،
إذ ليس من السهل أن يستشفع المرء لأسرى أخذوا
في ساحة الوغى وهم يقاتلون ، ومن أسرة خلعت
الخليفة وهددت دولته بالزوال .

بل وجدوا من يرثيهم أحراراً وأصدقه ،
بعد زوال ملكهم وزوالهم ، فقد رثى ثابت بن
قطنه (٩٠) حين بلغه مقتل يزيد بن المهلب ، فقال:

ألا يا هند طال علىّ ليلى
وعاد قصيره ليلاً تماماً
كأننى حين خلقت الثرى
سقيت لعاب أسود أوسماً
أمرّ علىّ خلوة العيش يوم
من الأيام شيبني غلاماً
مصاب بنى أبيك وغبت عنهم
فلم أشهدهم ومضوا كراماً
فلا والله لا أنسى يزيداً
ولا القتل التي قتلت حراماً
مع قصيدة طويلة (٩١) .

وقال أيضاً يرثى يزيد بن المهلب :

أبى طول هذا الليل أن يتصرماً
وهاج لك الهمم الفؤاد المتيماً
أرقت ولم تارق معى أم خالد
وقد أرق عيناى حولاً منجرماً
على هالك هذه العشيرة فقده
دعته المنايا فاستجاب وسلماً
على ملك بالعقرى صاح جبنت
تسلت إن لم يجمع الحي ماثماً
وفي غير الأيام يا هند فاعلمي
لطالب وتر نظرة إن تلوما
فعلىّ إن مالت بى الريح ميلة
على ابن أبى ذبيان أن يتندما
أمسلم إن تقدر عليك رماحنا
نذرك بهاقىء الأساود مسلماً

(٩٠) هو ثابت بن كعب بن جابر العنكي الأزدي ، أصيب
عنه بخراسان ، فجعل عليها قنطرة ، فعرف بذلك ،
انظر التفاصيل في كتاب : الشعر والشعراء لابن قتيبة
(٥٢٦/٢) .

(٩١) الطبري (٦٠٣/٦) .

وإن نلق للعباس في الدهر عشرة
تكافئنه باليوم الذي كان قدماً
قصاصاً ولا تعدو الذي كان قداتي
إلينا وإن كان ابن مروان أظلمنا
ستعلم إن زلت بك التعل زلة
وأظهر أقوام حياء مجتمجماً
من الظالم الجانى على أهل بيته
إذا خصرّت أسباب أمروا بنهما
وإننا لعطافون بالحلم بعد ما
نرى الجهل من فرط اللئيم تكرماً
وإننا لحلاّون بالشفر لا نرى
به ساكناً إلا الخميس العرم مرماً
نرى أن للجيران حقاً وذمة
إذا الناس لم يرعوا لذي الجار محرماً (٩٢)

وليس من المعقول أن يرثى الشاعر بهذه
القصيدة يزيداً ، وفيها من وعيد وتحذير لسلطة
مسيطرة قائمة ، ويعلمها للناس بالرغم من خطر
إعلانها على نفسه وروحه ، إلا إذا كان ليزيد عليه
فضل عظيم يستعرض الشاعر فيها روحه وفاء
واعترافاً بالجميل .

ولهذا الشاعر مرثيات كثيرة في يزيد بن
المهلب ، ولغيره من الشعراء مرثيات أخرى كثيرة
فيه وفي أهل بيته ، ومن المستحيل أن يقال هذا
الشعر المهموس الصادر عن القلب ، القريب من
النفس ، البعيد عن النفاق والتزلف ، إلا في رجال
يملاؤن الأعين قدراً وجلالاً ، وفضلاً وكرماً ، وبطولة
 وإقداماً .

أما في حياة آل المهلب ، فقد أكثر الشعراء
من مدحهم ، ولعل في هذين المثلين ما يكفى لاثبات
سمة الصدق في المديح .

قال شاعر في يزيد وآل المهلب :

نزلت على آل المهلب شاتياً
غريباً عن الأوطان في زمن المحل
فما زال بى إحسانهم وافتقادهم
وبرهم حتى حسبتهم أهلى (٩٣)

(٩٢) ابن الأثير (٨٨/٥) مع تصحيح قليل عن الطبري (٦٠٣/٢)
وفيه تنمة القصيدة .

(٩٣) مختصر تاريخ البشر لأبي الفدا (٢٠١/١ - ٢٠٢) .

وقال الفرزدق في آل المهلب :

إن المهالبة الكرام تحمّلوا
دفعَ المكاره عن ذوى المكروه
زأنوا قديمهم بحسن حديثهم
وكریم أخلاق بحسن وجوه (٩٤)

ولابدّ لى من ذكر مثل واحد من أمثلة بطولة
يزيد بن المهلب وشجاعته الخارقة وبطولته الفذة،
فهو مثل يحتذى به حقا .

عند انكشاف الناس عن يزيد وهروبهم في
معركة (العقر) ، جاءه أبو روبة المرجى فقال :
« ذهب الناس ... هل لك أن تنصرف إلى
(واسط) ، فأنها حصن ، فتزلها ويأتيك مدد
أهل (البصرة) ويأتيك أهل (عمان) و (البحرين)
في السفن ، وتضرب خندقا ؟ » . فقال يزيد :
« قبّح الله رأيك ! إلىّ تقول هذا ! الموت أيسر
علىّ من ذلك » . فقال أبو روبة : « فأنى اتخوف
عليك لما ترى ، أما ترى ما حولك من جبال
الحديد ! » ، فقال : « أمّا أنا فما أباليها ، جبال
حديد كانت أم جبال نار . اذهب عنا إن كنت
لاتريد قتالا معنا ، ثم تمثّل قول الأعشى :

أبالموت خَشَّستنى عبادٌ وإنما

رأيت منّا يا الناس يشقى ذليلها .

فما ميّنة إن متّها غير عاجز

بعجز إذا ما غالت النفس غولها (٩٥)

ثم استقتل حتى قتل مقبلا غير مدبر .

حتى غلمان آل المهلب كانوا أبطالاً لا يهابون
الموت ، فقد قدّم يزيد بن عبد الملك ثلاثة عشر رجلاً
من آل المهلب للقتل ، فقتلوا وبقي منهم غلام
صغير ، فقال الغلام المهلبى : « اقتلونى ، فما أنا
بصغير » ، فقال يزيد : « انظروا أنبت ! » ، فقال :
« أنا أعلم بنفسى ، قد احتلمت ووطئت النساء » ،
فأمر به يزيد ، فقتل ! (٩٦)

لقد كانت (الهزيمة) لآل المهلب مأساة
مروّعة ، وأدى الاقتتال الذى نشب بين الاخوة
إلى توقف الفتح وانتقاض قسم من البلاد المفتوحة ،
واهتزاز الثقة بالدولة ، كما أدى إلى عدااء عميق

الجدور بين القبائل العربية في العراق وممالك
الخلافة الأخرى في المشرق .

كما انتهز هذه الفرصة السانحة دعاة
العباسيين ، فاستشرى خطرهم وأصبحت دعوتهم
مكشوفة في (خراسان) .

لذلك كان انتصار مسلمة والعباس على آل
المهلب في هذا الاقتتال انتصاراً تعبويّاً ، ولكنه كان
هزيمة سوقيّة .

ولا قيمة للانتصار التعبوى بالنسبة للهزيمة
السوقيّة كما هو معروف .

هـ . فما هى أسباب انتصار مسلمة بن
عبد الملك والعباس بن الوليد بن عبد الملك على يزيد
ابن المهلب وآل المهلب .

لم تكن ثورة ابن المهلب ثورة (مبدئية) بل
ثورة (شخصية) ، أي أن هذه الثورة لم تكن من
أجل مبدأ أو مبادئ ولو أنها تظاهرت بتبنى
الاسلام الصحيح والدفاع عن تعاليمه ومقاومة
الانحراف عن مبادئه ، ولكنها لم تستطع أن تقنع
أحدًا من الناس بصدق ادعائها ، لأنّ القائمين عليها
معروفون جداً ، وهم لا يختلفون عن بنى أميّة من
هذه الناحية بشيء .

لقد كان السبب المباشر لثورة يزيد بن المهلب
خوفه من القتل ، أما السبب غير المباشر فهو طموحه
الشخصى في الحكم لينتفع ورجاله بما تغدقه
السلطة من نفوذ وسمعة وثراء على الحاكمين .

فقد مكث في سجن (حلب) من سنة مئة
الهجرية (٩٧) (٧١٨ م) حتى مرض عمر بن عبد
العزیز رضى الله عنه مرضه الذى مات به سنة
إحدى ومئة الهجرية (٩٨) (٧١٩ م) ، أى أنه بقى في
السجن نحو سنتين ، لم يفكر في الهرب - وكان
بإمكانه أن يفعل - إلاّ بعد أن علم أنه لا أمل في بقاء
عمر بن عبد العزيز على قيد الحياة ، وأنّ الخليفة
من بعده يزيد بن عبد الملك سينتقم منه بأزهاق
روحه والقضاء على حياته .

ولم يكتف يزيد بن المهلب سرّ هربه ، بل
كشف عن هذا السرّ بصراحة في رسالته التى بعث
بها إلى عمر بن عبد العزيز وهو على فراش الموت ،
فقال في رسالته : « إني والله لو وثقت بحياتك لم

(٩٤) النجوم الزاهرة (٢٦٩/١) .

(٩٥) الطبري (٥٩٦/٦ - ٥٩٧) .

(٩٦) ابن الأثير (٨٧/٥) .

(٩٧) الطبري (٥٥٦/٦) وابن الأثير (٨/٥) .

(٩٨) الطبري (٥٦٥/٦) وابن الأثير (٥٨/٥) .

أخرج من محبسك ، ولكنى خفت أن يلي يزيد -
يريد يزيد بن عبد الملك - فيقتلنى شر قتلة » . (٩٩)

وسبب العداوة بين يزيد بن المهلب ويزيد بن
عبد الملك ، أن ابن المهلب عذب أصحاب ابن عبد
الملك من آل أبي عقييل ، وكانت أم الحجاج بنت
محمد بن يوسف ، وهى ابنة أخى الحجاج بن
يوسف الثقفى زوجة يزيد بن عبد الملك ، وقد جرى
هذا التعذيب في أيام سليمان بن عبد الملك . وكان
فيمن أتى به أم الحجاج زوجة يزيد بن عبد الملك ،
وقيل : أختها ، فعذبها يزيد بن المهلب ليستخرج
ما لديها من أموال للدولة ، فأتى يزيد بن عبد الملك
إلى ابن المهلب في منزله ، فشفع فيها ، فلم يشفعه ،
فقال : « الذى قررتم عليها ، أنا أحمله » ، فلم
يقبل منه ، فقال لابن المهلب : « أما والله لئن وليت
من الأمر شيئاً ، لأقطعن منك عضواً ! » فقال ابن
المهلب : « وأنا والله لئن كان ذلك ، لأرمينك بمئة
ألف سيف ! » . (١٠٠)

وفي رواية أخرى ، أن سبب العداوة بين ابن
عبد الملك وابن المهلب ، أن ابن المهلب خرج من
الحمّام أيام سليمان بن عبد الملك ، وقد تضمخ
بالغالية (١٠١) ، فاجتاز بيزيد بن عبد الملك وهو إلى
جانب عمر بن عبدالعزيز ، فقال : « قبّح الله الدنيا ،
لوددت أن مثقال غالية بألف دينار ، فلا ينالها إلا
كل شريف » ، فسمع ابن المهلب فقال : « بل
وددت أن الغالية في جبهة الأسد ، فلا ينالها إلا
مثلي » ، فقال يزيد بن عبد الملك : « والله لئن وليت
يوماً لأقتلنك » ، فقال ابن المهلب : « والله لئن
وليت هذا الأمر وأنا حي ، لأضربن وجهك
بخمسين ألف سيف » . (١٠٢)

ومهما يكن من أمر صحة هاتين الروايتين

(٩٩) ابن الأثير (٥٨/٥) وانظر الطبري (٥٦٤/٦) ، وكان
يزيد بن عبد الملك ولياً للعهد يتولى الخلافة بعد عمر بن
عبد العزيز رضي الله عنه .

(١٠٠) ابن الأثير (٥٧/٥) .

(١٠١) الغالية : من الطيب ، أول من سماها بذلك سليمان
ابن عبد الملك ، تقول : تغلى بالغالية ، انظر مختار
الصحاح - ط ٧ (٤٨٠) . والغالية : طيب معروف ،
وهو أخلاط من مسك وعنبر وبان تغلى على النار ،
انظر معجم متن اللغة (٣٢١/٤) . والغالية : ضرب
من الطيب ، وهى مسك وعنبر يعجنان بالبان ، انظر
الافصح في فقه اللغة (٣٥٦/١) . والغالية : أخلاط
من الطيب كالسك والعنبر ، انظر المعجم الوسيط
(٦٦٠/١) .

(١٠٢) ابن الأثير (٨٧/٥) .

عن سبب العداوة بين اليزيديين : ابن عبد الملك
وابن المهلب ، فيصدقهما من يشاء ويكذبهما
من يشاء ، فالمعروف أن يزيد بن عبد الملك كان
يكره ابن المهلب وآل بيته الذين كانوا موضع
ثقة أخيه سليمان بن عبد الملك من قبله ، كما كان
الحجاج بن يوسف موضع ثقة عبد الملك بن مروان
ومن بعده الوليد بن عبد الملك ، بينما كان سليمان
ابن عبد الملك يكره الحجاج وآل بيته (١٠٣) ، لأن
الوليد أراد أن يخلع سليمان ويباع لولده ، فأبى
سليمان ، فكتب الوليد إلى عماله ودعا الناس
إلى ذلك ، فلم يجبه إلا الحجاج وقتيبة
ابن مسلم الباهلي وخوادم من الناس (١٠٤) ،
وقد جرّد سليمان أموال الحجاج بن يوسف
الثقفى وآل بيته وأوكل إلى يزيد بن المهلب
وصادر الفائض منها (١٠٥) ، وكان يزيد بن عبد
الملك زوج ابنة محمد بن يوسف الثقفى أخ
الحجاج بن يوسف الثقفى ، فهو لا ينسى ليزيد
ابن المهلب شدته على أصحابه في عهد سليمان
ابن عبد الملك ، لذلك أثر يزيد أن ينجو بنفسه
خوفاً من نقمة يزيد بن عبد الملك وانتقامه ،
فهرب من سجنه وخلع يزيد بن عبد الملك وأعلن
الثورة في العراق .

وحاول ابن المهلب أن يسبغ على ثورته
صفة الشرعية ، ليستقطب حوله أهل العقيدة
الراسخة والمثلى العليا الذين يضحون بأرواحهم
من أجل عقيدتهم ومثلهم العليا ، لأنه يعلم علم
اليقين أن أمثال هؤلاء هم الذين يتحملون أعباء
الحرب ويصبرون على أهوالها ويصابرون وهم
الذين يقودون إلى النصر ويحرزون ، أما
المرتزقة فلا يقودون إلا إلى الهزيمة والعار .
لذلك تظاهر ابن المهلب بأنه ثار ليعيد للمسلمين
سيرة العُمَريين : أبى بكر الصديق وعمر بن
الخطّاب رضي الله عنهما .

وكان نصبيعة ابن المهلب : « ببايمون
على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه
وسلم ، وعلى ألا تطأ الجنود بلادنا ولا بيضتنا ،
ولا يُعاد علينا سيرة الفاسق الحجاج ، فمن بايعنا
على ذلك قبلنا منه ، ومن أبى جاهدناه ، ثم

(١٠٣) الطبري (٩٧/٦) وابن الأثير (١٠/٥) .

(١٠٤) ابن الأثير (١٠/٥) .

(١٠٥) ابن الأثير (٥٧/٥) .

جعلنا الله بيننا وبينه » ، ثم يقول : « تبايعوننا؟ »
فإذا قالوا : نعم ، بايعهم (١٠٦) !

ولما سيطر يزيد بن المهلب على (البصرة)
، خطب الناس ، فذكر أنه يدعوهم إلى كتاب
الله وسنة نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ،
ويحث على الجهاد ، وأن جهاد أهل الشام
اعظم ثواباً من جهاد الترك والديلم !! (١٠٧) .

وكان حينذاك في (البصرة) علماء عاملون
مخلصون محافظون على كرامة العلماء يقولون
الحق ولا يخشون في الله لومة لائم ، منهم الحسن
البصري رضي الله عنه ، فلما سمع خطاب ابن
المهلب الذي ألقاه في الحشد الجاشد من الناس ،
دنا من منبر ابن المهلب الذي يلقي من فوقه
خطابه بين أنصاره ومؤيديه ، فرفع الحسن
البصري صوته قائلاً : « والله لقد رأيناك والياً
ومولى عليك ، فما ينبغي لك ذلك » ، فسمع ابن
المهلب رد الحسن البصري ، ولكنه لم يلتفت
إليه ومضى في خطبته . (١٠٨)

ولم يكن ابن المهلب ليسكت عن الحسن
البصري ، لو لم يكن يعرف قوته في الحق وشدة
صلابته في اظهاره ، وأن قوته بالحق اعظم من
قوة السلطان بالباطل ، فما كان الحسن يريد
شيئاً لنفسه ، ولكنه كان يريد كل شيء
للمسلمين .

وما كان ابن المهلب ليسكت لو أنه على حق
فيما يدعيه ، ولكنه كان يعلن مالا يخفى ،
ودعوته للدين مظهر لا مخبر .

وخرج الحسن البصري من المسجد الذي
كان ابن المهلب يخطب فيه ، فمر على أنصار ابن
المهلب وهم ينتظرون خروجه ، وقد اصطفوا صفين
ونصبوا الرايات والرماح ، وهم يقولون : يدعونا
يزيد إلى سنة العُمَريين ! فقال الحسن :
« إنما كان يزيد بالأمس يضرب أعناق هؤلاء
الذين ترون ، ثم يسرّح بها إلى بنى مروان ،
يريد بهلاك هؤلاء رضاهم ! فلما غضب غضبة ،
نصب قصباً ، ثم وضع عليها خراقة ، ثم قال :
اني قد خالفتم فخالفوه ! قال هؤلاء نعم . وقال :
إني أدعوكم إلى سنة العُمَريين ، وإن من سنة
العُمَريين أن يوضع قيد في رجله ، ثم يرد إلى

محبس عمر - يقصد عمر بن عبدالعزيز - الذي
فيه حبسه » فسأله أحد أصحابه ممن سمع
قوله : « والله لكأنك يا أبا سعيد راض عن أهل
الشام ! » ، فكان جوابه : أنه غير راض
عنهم (١٠٩) ، مما يدل على أن الحسن البصري
كان يصدق بالحق ، غير ملتزم بأحد من الحكام .

وكما لم يستطع ابن المهلب بادعائه أن
ثورته ثورة مبدئية أن يقنع قادة الفكر ، أخفق
باقناع قادة الرجال أيضاً ، فقد هرب رءوس
أهل (البصرة) من تميم وقيس ومالك بن
المنذر ولحقوا بالكوفة التي كانت لا تزال مع
مع الأمويين كما لحق بعضهم بالشام (١١٠) .

لقد صور الحسن البصري ثورة ابن
المهلب أحسن تصوير ، فذكر أنها للدنيا الزائلة
فقال : « أيها الناس ! الزموا رجالكم وكفوا
أيديكم ، واتقوا الله مولاكم ، ولا يقتل بعضكم
بعضاً على دنيا زائلة وطمع فيها يسير . . . » ،
ثم وصف ثورة ابن المهلب بأنها فتنة من الفتن
التي ينبغي الابتعاد عن المشاركة فيها . (١١١)

لقد التف حول ابن المهلب رجال لا يعرفهم
أحد (١١٢) ، يتبعون كل من يقدم لهم المال ،
بل يتبعون من يقدم لهم مالا أكثر مما يقدمه
لهم غيره ، وفي الوقت الذي كان يقدم عامل
بنى أمية على (البصرة) درهمين لكل رجل
ينضوي تحت لوائه ، كان يزيد بن المهلب
يعطي من اتاه قطع الذهب والفضة ، فمال
الناس إليه . (١١٣)

ولكن أي نوع من الناس مالوا إليه ؟ لقد
مال إليه المرتزقة الذين يهتمون بجيوبهم ولا
يهتمون بقلوبهم ، أي أن الذين مالوا إليه من
أهل (الطمع) المادى لأهل (العقيدة) الراسخة
الذين لا يمكن شراء ضمائرهم بالمال وكل متاع
الدنيا ، وأهل (الطمع) لا يقاتلون ولا يضحون ،
لأن الروح أغلى من كل مال وكل متاع ، وأهل
(العقيدة) يستقثلون ويضحون ، لأن (العقيدة)
أغلى من المال والمتاع ، ولئن انتصر أهل (الطمع)
ساعة ، فلن ينتصروا إلى قيام الساعة .

وعلى الرغم من أن تعداد الذين التفوا

(١٠٩) الطبري (٥٨٧/٦ - ٥٨٨) وابن الأثير (٧٦-٧٥/٥) .

(١١٠) الطبري (٥٨٣/٦) وابن الأثير (٧٢/٥) .

(١١١) الطبري (٥٩٤/٦) .

(١١٢) الطبري (٥٨٧/٦) .

(١١٣) الطبري (٥٨٠/٦ - ٥٨١) وابن الأثير (٧٢/٥) .

(١٠٦) الطبري (٥٩٢/٦) .

(١٠٧) الطبري (٥٨٧/٦) وابن الأثير (٧٥/٥) .

(١٠٨) الطبري (٥٨٧/٦) وابن الأثير (٧٥/٥) .

بارادة القتال فانتصر، بينما كان جيش ابن المهلب لا يتحلى بهذه المزية فاندحر .

ولكن الانتصار والاندحار في الاقتتال بين طائفتين من طوائف الدولة سّيان ، والمستفيد الوحيد من مثل هذا الاقتتال هو العدو المشترك لتلك الدولة .

ولعلّ هذا الدرس يفيد من يقرأ تاريخ هذه الحقبة من أيام العرب والمسلمين .

الانسان

بعد قضاء الأيام الأولى للعبّاس من عمره في التعليم والتدريب ، بدأ يعطى ثمراته للدولة والناس ، وكانت أول هذه الثمرات توليه قيادة جيش يقاتل الروم في الجبهة الشمالية الغربية للدولة سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٧ م) .

وتوالت غزواته ومعاركه بعد ذلك ، كما فصلناه في الحديث عن جهاده .

ولكن نشاطه لم يقتصر على الناحية العسكرية من أعمال الدولة ، بل شمل الناحية الإدارية من أعمالها أيضا .

فقد كان يسكن (حمص) ، فاستعمله أبوه عليها (١١٨) ، وكان عليها سنة ست وتسعين الهجرية (٧١٤ م) وهي سنة وفاة والده الوليد ابن عبد الملك (١١٩) ، ولكننا لا ندرى تاريخ تسنمه هذه الولاية لأنّ أحداً من المؤرخين لم يتطرق إليه ، ومن المحتمل أنّه تولّاها في هذه السنة ، لأنه كان في السنوات التي سبقتها مشغولاً في ميدان قتال الروم ، كما مرّ بنا في ذكر غزواته ، ومن المحتمل أنه بقى في منصبه هذا حتى سنة إحدى ومئة الهجرية (٧١٩ م) ، حيث سّيره عمه يزيد بن عبد الملك مع عمه مسلمة بن عبد الملك في هذه السنة لقتال يزيد بن المهلب في العراق ، وكان العباس في هذه الحرب قائداً لجيش جزيرة ابن عمر كما ذكرناه سابقاً .

ولما انتهى الاقتتال في العراق بين الأمويين من جهة وابن المهلب من جهة أخرى ، لم يعد العباس إلى ولايته في (حمص) ، بل عاد والياً على (حلب) ، ولا نصّ على ولايته هذه في المصادر التاريخية المتيسّرة ، غير النص الذي ورد فيه : أنّ يزيد بن

حول ابن المهلب مئة وعشرون ألف مقاتل - كما ذكرنا - وهو جيش ضخم بالنسبة لتلك الأيام ، إلا أنّ ضبّطهم كان قليلاً ، فهم يعارضونه في كل رأى يبدّيه (١١٤) ، ولا ينفذون أوامره لغرض التملص من الاقتتال ، كما كان ابن المهلب لا يسمع رأى أصحاب الرأى حتى ولو كانوا من آل بيته والمقربين إليه ، (١١٥) وهذا يدل على أنّ الثقة لم تكن متبادلة بين القائد ورجاله ، وعدم تبادل الثقة بين الطرفين أول الفشل ويؤدي إلى الهزيمة .

ولم يكن أمر تفشّخ جيش ابن المهلب خافياً عليه ، فقد كان بين الخاصة من آل بيته وأصحابه قبل نشوب القتال ، فتساءل قائلًا : « ترون في هذا العسكر ألف سيف يضرب به ؟ ! » فأجابه أحد رجاله : « أيّ والله ، وأربعة آلاف سيف » ، فقال : « إنهم والله ما ضربوا ألف سيف قط ، والله لقد أحصى ديواني مئة وعشرين ألفاً ، والله لو ددّت أنّ مكانهم الساعة معى من ب (خراسان) من قومي (١١٦) » ، وكان ابن المهلب يقصد ، بأنه لا يقاتل ألف رجل من بين جيشه اللّجب كما يقاتل الرجال !!

وصدق ما توقعه ابن المهلب ، إذ انهزم جيشه بعد الصدمة الأولى من غير قتال (١١٧) ، لأنّ هذا الجيش ليست لديه (قضيّة) يدافع عنها ويضحى من أجلها ، ولا (مصلحة) حقيقية له في الاقتتال .

إذا لقد تورط يزيد بن المهلب في معركة خاسرة ، ولكنه قاتل عن شرفه وأحسابه ، ولم يرض لنفسه الفرار والاستسلام .

ولم يكن ابن المهلب وحده يقود جيشاً من المرتزقة ، فقد كان أكثر جيش مسلمة بن عبد الملك والعبّاس من المرتزقة أيضاً ، ومن الواضح أن كلا الجيشين لا يخلوان من مقاتلين لهم مصلحة في الاقتتال ، ولكن أكثر الجيشين يقلب عليهما الارتزاق .

إلا أنّ جيش الأمويين كان جيش دولة ، فهو أكثر ضبطاً ونظاماً وأضمن مصلحة ومستقبلاً ، كما كان جيشاً ملتزماً لارتكازه على حكم قائم وسلطة شرعية ، لذلك كان هذا الجيش يتحلى

(١١٤) الطبري (٥٨٢/٦) وابن الأثير (٨٠/٥) .

(١١٥) الطبري (٥٨٨/٦) وابن الأثير (٧٨-٧٧/٥) .

(١١٦) الطبري (٥٩٦/٦) .

(١١٧) الطبري (٥٩٥/٦) وابن الأثير (٨٢/٥) .

(١١٨) تهذيب ابن عساکر (٢٧٠/٧) .

(١١٩) تاريخ ابن خياط (٢١٦/١) .

عبد الملك بعث برعوس قتل آل المهلب إلى العباس في (حلب) (١٢٠) ، ومعنى ذلك أنه تولى هذه المدينة ، وكان ذلك سنة اثنتين ومئة الهجرية (٧٢٠ م) ، ومن المحتمل أنه بقى على (حلب) سنة وبعض السنة ، لأنه غزا الروم سنة ثلاث ومئة الهجرية (٧٢١ م) ، كما مرّ في تعداد غزواته .

وقد صار العباس إلى (مرعش) (١٢١) فعمرها وحصنها ، ونقل الناس إليها ، وبنى لها مسجداً جامعاً ، وكان يقطع في كل عام على أهل (قنسرين) بعثاً إليها (١٢٢) . وقد مرت (مرعش) بأحداث كثيرة أدت إلى خرابها (١٢٣) . ومن الواضح أن هدف تعمير (مرعش) وتحسينها ، هو لتصبح قاعدة متقدمة للمسلمين يرتكزون عليها في غزواتهم للروم ، لذلك حرص العباس على تحصينها لتقوى على اندفاع عنها في حالة مهاجمتها من الروم ، كما أسكنها المسلمين ليدافعوا عنها عند الحاجة ، ولكننا لا ندرى متى عمّرها وحصنها وأسكنها المسلمين ، ومن المحتمل أنه فعل ذلك في أيام ولايته على (حلب) ، لأن (مرعش) تقع في منطقة (حلب) وتابعة لسيطرتها في تلك الأيام ، وتعتبر من بلاد الشام .

٢ . والذي يبدو من سيرة العباس أنه كان يتمتع بمزيد سبق النظر ، وهي مزية لها قيمتها في الرجال قادة وإداريين .

فلما وجه يزيد بن عبد الملك الجيوش إلى يزيد بن المهلب ، واستعمل عليها مسلمة بن عبد الملك والعباس ، قال له : « يا أمير المؤمنين ! إن أهل العراق أهل غدر وإرجاف ، وقد توجهنا محاربين ، والحوادث تحدث ، ولا نأمن أن يرجف أهل العراق ويقولوا : مات أمير المؤمنين ، فيفت ذلك في أعضادنا ، فلو عهدت عهد عبدالعزيز بن الوليد (١٢٤) ، لكان رأياً صواباً » . ولكن مسلمة

(١٢٠) الطبري (٦٠٢/٦) وابن الأثير (٨٦/٥) وابن خلدون (١٧٢/٣) .

(١٢١) مرعش : مدينة من الثغور بين الشام وبلاد الروم ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٥/٨) ، وهي مدينة صغيرة ، انظر تقويم البلدان (٢٦٢-٢٦٣) ، بينها وبين مدينة (الحدث) وهي من الثغور أيضاً خمسة فراسخ ، انظر التفاصيل في المسالك والممالك لابن خرداذبة (٢١٦) .

(١٢٢) البلاذري (٢٦٦) ، أي يقطع بعثاً إلى (مرعش) .

(١٢٣) انظر التفاصيل في البلاذري (٢٦٥-٢٦٦) .

(١٢٤) عبدالعزيز بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، وسترده سيرته المفصلة باعتباره قائداً من قادة الفتح .

ابن عبد الملك بعد إمعان الفكر ، قال ليزيد بن عبد الملك : « يا أمير المؤمنين ! أيهما أحب إليك : أخوك أم ابن أخيك ؟ » ، فقال : « بل أخى » ، فقال : « فأخوك أحق بالخلافة » ، فقال يزيد : « إن لم يكن في ولدى ، فأخى أحق بها من ابن أخى كما ذكرت » ، فقال : « فابنك لم يبلغ ، فباع لهشام ابن عبد الملك ، ثم بعده لابنك الوليد » ، وكان الوليد يومئذ ابن إحدى عشرة سنة ، فباع بولاية العهد لهشام بن عبد الملك أخيه ، وبعده لابنه الوليد بن يزيد . ثم عاش يزيد حتى بلغ ابنه الوليد ، فكان حين يراه يقول : « الله بيني وبين من جعل هشاماً بيني وبينك (١٢٥) » .

ولم يكن ليزيد بن عبد الملك ولياً للعهد يخلفه إذا قضى يزيد نحبّه ، فكان هناك احتمال كبير لأرجاف المرجفين بموت يزيد في ظروف الحرب العصيبة دون أن يكون له ولي عهد يخلفه وسيطر على الأمور ، مما يؤدي إلى الفوضى والضياع . لذلك اقترح مسلمة بن عبد الملك والعباس على يزيد بن عبد الملك أن يعهد بولاية العهد ، فنجحاً فيما أراد ، وقطعا الطريق على المرجفين .

٣ . وتوفى يزيد بن عبد الملك سنة خمس ومئة الهجرية (١٢٦) (٧٢٣ م) ، فخلفه هشام بن عبد الملك بعد موته .

وتوفى هشام بن عبد الملك سنة خمس وعشرين ومئة الهجرية (١٢٧) (٧٤٢ م) ، فخلفه الوليد بن يزيد بن عبد الملك .

ولم يكن الوليد محمود السيرة ، وكان خليعاً ماجناً (١٢٨) ، ولا شك في أن المبالغات والتزيّد كثيرة في سيرته ، لتسويغ قتله أولاً ، ولغمر حكم بنى أمية ثانياً .

وكره الناس حكم الوليد ، وكان أشدهم كرها يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، الذي كان لا ينفك يظهر مثالبه وينتقد تصرفاته ، وكان الناس أميل إلى قوله لأنه يظهر الشك ويتواضع (١٢٩) .

(١٢٥) ابن الأثير (٩٢-٩١/٥) وابن خلدون (١٧٤/٣) وانظر الأفاقي (٢/٧) .

(١٢٦) ابن الأثير (١٢٠/٥) وابن خلدون (١٨٢/٣) والنجوم الزاهرة (٢٥٥/١) .

(١٢٧) ابن الأثير (٢٦١/٥) وابن خلدون (٢٢٠/٣) والنجوم الزاهرة (٢٩٦/١) .

(١٢٨) انظر التفاصيل في : ابن الأثير (٢٨٠-٢٩١) وغيره من المصادر التاريخية المعتمدة .

(١٢٩) ابن الأثير (٢٨١-٢٨٠/٥) .

وفاتح قسم من الناس يزيد بن الوليد بن عبد الملك بالبيعة له ، فشاور أحد خلائه بالأمر ، فقال له : « لا يبايعك الناس على هذا ، وشاور أخاك العباس ، فإن بايعك لم يخالفك أحد ، وإن أبى كان له أطوع » .

وكان الوباء حينذاك منتشراً بالثمام ، ففادرها الناس إلى البوادي ، وكان العباس ب (القسطل) (١٣٠) ، ويزيد بالبادية أيضاً ، بينهما أميال يسيرة .

وأتى يزيد أخاه العباس واستشاره ، فنهاه عن ذلك ، ولكنه عاد وبايع الناس سراً ، ثم بث دعائه ، فدعوا الناس .

وعاود يزيد أخاه العباس واستشاره ثانية ودعاه إلى نفسه ، فزبره (١٣١) ، وقال : « إن عدت لمثل هذا لأشدتك وثاقاً وأحملتك إلى أمير المؤمنين » ، فخرج من عنده ، فقال العباس : « إني لأظنه أشأم مولود في بني مروان » .

وبلغ الخبر مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الذي كان حينذاك على (إرمينية) ، فكتب إلى سعيد بن عبد الملك بن مروان ، يأمره أن ينهى الناس ويكفهم ويحذرهم ويخوفهم خروج الأمر عنهم ، فأعظم سعيد ذلك ، وبعث بالكتاب إلى العباس ، فاستدعى العباس يزيد وتهدهده ، ولكنه كتبه أمره ، فصدقه العباس ، وقال لأخيه بئس بن الوليد : « إني أظن أن الله قد اذن في هلاككم يا بني مروان ، ثم تمثل :

إني أعيدكم بالله من فتن
مثل الجبال تسامي ثم تندفع
إن البرية قد ملئت سياستكم
فاستمسكوا بعمود الدين وارتمعوا
لا تلجمن ذناب الناس أنفسكم
إن الذناب إذا ما ألحمت رتموا
لا تبقرن بأيديكم بطونكم
فتم لا حرة تفنني ولا جزع

ولما اجتمع ليزيد أمره وهو لا يزال في البادية ، أقبل إلى (دمشق) ، وكان أكثر أهلها قد بايعوه سراً ، فحدثت مناوشات بين أنصاره وأنصار الوليد ، فتغلب أنصار يزيد على أنصار الوليد .

(١٢٠) القسطل : موضع بين حمص ودمشق ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨٦/٧) .
(١٣١) زبره : منعه ونهاه . يقال : زبر السائل : انتهره وزجره .

وجهز يزيد جيشاً وسيرهم إلى الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وجعل عليهم عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك .

وسير الوليد بن يزيد أبا محمد عبدالله بن يزيد بن معاوية بن أبي سفيان إلى (دمشق) ، فسار بعض الطريق ثم أقام ، وبايع يزيد بن الوليد .

وسار الوليد بن يزيد على رأس جيشه حتى أتى (البخراء) (١٣٢) قصر النعمان بن بشير فنزله عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك .

وكتب العباس إلى الوليد بن يزيد : « إني آتيك » ، فبلغ عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك مسير العباس إلى الوليد ، فأرسل إليه وهو في الطريق من أخذه قهراً . وأتى به عبد العزيز فقال له : « بايع لأخيك يزيد ، فبايع ووقف .

ونصب عبد العزيز راية وقال الناس : « هذه راية العباس ، قد بايع أمير المؤمنين يزيد » ، فقال العباس : « إنا لله ، خدعة من خدع الشيطان ، هلك بنو مروان » .

وتفرق الناس عن الوليد ، وأتوا العباس وعبد العزيز .

وبرز الوليد لجموع عبد العزيز ، فقاتلهم قتالاً شديداً . وتكاثروا عليه ، فدخل قصر النعمان بن بشير ، وجلس يقرأ القرآن ، وقال : « يوم كيوم عثمان ! » .

وحاصروا القصر وصعدوا على الحائط ، فقتلوا الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، ثم احتزوا رأسه وسيروه إلى يزيد بن الوليد بن عبد الملك ، فاتاه الرأس وهو يتفدى ، فسجد لله شكراً .

وكان قتل الوليد سنة ست وعشرين ومئة الهجرية ، فاضطرب أمر بني أمية ولم ينعم يزيد ابن الوليد الذي تولى بعده بالخلافة غير ستة أشهر وليلتين ، وقيل : كانت ستة أشهر واثنى عشر يوماً ، وقيل : خمسة أشهر واثنى عشر يوماً ، وكان موته بدمشق (١٣٣) .

لقد وقف العباس هذا الموقف من الوليد بن

(١٣٢) البخراء : ماء منتنة في طرف الحجاز ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٨٧/٢) ، وهذه ليست المقصودة ، بل البخراء القريبة من (تدمر) ، انظر تاريخ ابن خياط (٢٨٠/٢) وهي على أميال من تدمر .

(١٣٣) انظر التفاصيل في ابن الأثير (٣٠٠/٥ - ٣١٠) وابن خلدون (٢٢٥/٢ - ٢٢٣) ، وانظر تاريخ ابن خياط (٢٨٠/٢ - ٢٨٣) والعقد الفريد (٦١/٤) والافغانى (٧٢/٧) .

يزيد بن عبد الملك ، على الرغم من نفوره منه وانتقاصه له يوم كان ولياً للعهد ، فقد ذكروا العباس وجماعة من بنى أمية كانوا عند هشام بن عبد الملك وهو خليفة . فذكروا الوليد بن يزيد فحتمقوه وعابوه ، وكان هشام يفضيه . ودخل الوليد ، فقال له العباس : « كيف حبك للروميات ، فإن أباك كان مشغوفاً بهن » ، فقال : « إنى لأحبهن ، وكيف لا يحببن وهن يلدن مثلك ؟ » ، قال : « انسكت فلست بالفحل يأتى عنبه (١٢٤) بمثلى » (١٢٥) .

وقد تكون هذه المحاوراة من اختلاق الأدباء للتسلية والترفيه عن النفوس ، ولكن كل الدلائل تشير إلى أن الوليد بن يزيد لم يكن محبوباً من الناس لانحرافه عن تعاليم الدين والخلق الكريم ، ومع ذلك فإن العباس لم يشجع أخاه يزيد بن الوليد ، حرصاً على وحدة الصف ، وحفاظاً على صلة الرحم ، وقطعاً لدابر الفتن .

وصدق ماتوقعه العباس ، إذ اضطرب أمر بنى أمية ، وثار أهل (حمص) ، وخالف أهل فلسطين ، وعصى أهل (اليمامة) ، وشق أهل (خراسان) عصا الطاعة ، واستفحل أمر دعاة العباسيين ، وخرج مروان بن محمد عن سيطرة الدولة ، وضاعت هيبة الحكام ، وقد حدثت كل هذه القلاقل والفتن خلال حكم يزيد بن الوليد الذي كان نحو ستة أشهر (١٢٦) .

أما العباس ، فلم يسلم هو الآخر من شظايا فتنة لم يكن من دعائها ، ولكنه اكتوى بها وبنارها ، فقد أغلق أهل (حمص) أبوابها بعد مقتل الوليد ابن يزيد ، وأقاموا النوائح ولبواكى عليه . وقيل لهم : إن العباس أعان عبدالعزيز بن الحجاج بن عبد الملك على قتل الوليد بن يزيد !! فهدم أهل (حمص) دار العباس وأنهبوا وسلبوا حرمة ، وطلبوه ، فسار إلى أخيه يزيد (١٢٧) .

لقد كان العباس بعيد النظر ، حين نصح بالابتعاد عن الفتنة ، ولتمسك بالوحدة ، والتخلي عن الفرقة .

ولكن لا رأى لمن لا يطاع .

(١٢٨) العصب : ماء الفحل .

(١٢٥) العقد الفريد (٢٥/٤) و (٥٠/٤) مع اختلاف بسيط .

(١٢٦) انظر التفاصيل في : ابن الأثير (٢٩٢/٥ - ٢١٥) وسائر المصادر التاريخية الأخرى .

(١٢٧) ابن الأثير (٢٩٢/٥) .

٤ . روى العباس عن معاذ بن جبل حديثاً واحداً مرسلًا ، أنه قال : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : من بنى لله مسجداً ، بنى الله له بيتاً في الجنة » . (١٣٨)

وكان العباس شاعراً له ذكر بين الشعراء وطبقاتهم .

ومن شعره ، أنه علم بأن مسلمة بن عبد الملك يعيبه ويذمه (١٢٩) ، ومن المحتمل أن سبب ذلك هو اختلافهما في الأساليب القتالية ، وهذا ما يحدث كثيراً بين القادة وغيرهم من ذوى المناصب القيادية والسياسية والإدارية والعلمية ، وهى عداوة أهل المهنة كما يقول المثل العربى القديم .

ووقع بينهما اختلاف ، فكتب العباس إلى عمته مسلمة : (١٤٠)

ألا نفسى فذاك أبا سعيد (١٤١)

وتقصر عن ملاحاتى وعدلى

فلولا أن أصلك حين ينمى

وفرعك منتهى فرعى وأصلى (١٤٢)

وانسى إن هضنت عظمى

ونالتنى إذا نالتك تبلى

لقد أنكرتنى إنكار خوف

يقصر منك عن شتمى وأكلى (١٤٣)

كقول المرء عمرو في القوافى :

« أريد حياته ويريد قتلى » (١٤٤)

ومن شعره قصيدته التى قالها لأصحابه حين هموا بظلع الوليد بن يزيد : (١٤٥)

(١٢٨) تهذيب ابن عساكر (٢٧٠/٧) .

(١٢٩) ابن الأثير (٧٤/٥) .

(١٤٠) ابن الأثير (٧٤/٥) وتهذيب ابن عساكر (٢٧١/٧) ومعجم الشعراء للمرزباني (٢٦٤) .

(١٤١) ورد صدر البيت : ألا تقنى الحياء أبا سعيد في : تهذيب ابن عساكر (٢٧١/٧) ومعجم الشعراء (٢٦٤) .

وأبو سعيد : كنيته مسلمة بن عبد الملك . (١٤٢) ورد عجز البيت : وفرعك كان من فرعى وأصلى ، في معجم الشعراء (٢٦٤) ، وورد في تهذيب ابن عساكر : وقومك كان من فرعى وأصلى .

(١٤٣) ورد عجز البيت : يضم حشاك من أكل وشرب ، في معجم الشعراء (٢٦٤) ، وورد في تهذيب ابن عساكر (٢٧١/٢) : يضم حشاك عن شرب وأكل .

(١٤٤) في معجم الشعراء ورد بيت يسبق البيت الأخير ، هو : كقول المرء عمرو في القوافى لقيس حين خالف كل عدل ونص البيت الأخير كما ورد في معجم الشعراء (٢٦٤) : عذيرى من خليل من مراد أريد حياته ويريد قتلى ! (١٤٥) تهذيب ابن عساكر (٢٧٠/٧) .

يا قومنا لا تملؤا نعمة لكم
 إن الآله لكم فيما مضى صنّع (١٤٦)
 فأنتم اليوم أهل الملك مذكّنب (١٤٧)
 وأهل دتيا ودين مابه طمع
 فأنفوا عدوكم عن تحت أثلتكم (١٤٨)
 واستجمعوا، إن أمر الدّين مجتمع
 قوموا عليه كما قام الآلى نصرؤا
 حتى توكؤوا وماخافوا وماجزعوا
 إن الكبير عليكم في ولايتكم
 أن تضبحوا وعمود الدّين منصدع
 لا يلحمن (١٤٩) ذئاب الناس اتفسسكم
 إن الذئاب إذا ما ألحمت رتع (١٥٠)
 لا تبقرن بأيديكم بطونكم
 فثم (١٥١) لاحسرة تفنى ولاجزع
 لا يلقين عليكم من جنايتكم
 مع الشقاء يديه الأزل (١٥٢) الجدع (١٥٣)
 إنى أعيدكم بالله من فتن
 مثل الجبال تسامى ثم تندفع
 لستم كماكان قبل اليوم يسمرها
 بالشرقية (١٥٤) بيضا حين تنزع

- (١٤٦) صنّع : ماهر ، حاذق في الصنعة .
 (١٤٧) الحنّنب : المدة الطويلة من الدهر ، ثمانون سنة أو أكثر ، وفي التنزيل العزيز : (لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو امضي حنّبا) .
 (١٤٨) الآلة : الأصل ، والميرة تجلب الى القوم ، ومتاع البيت ، والاهبة والعدة . ويقال : تحت آلته : عابه وتنقصه ، قال الأمشي :
 الست منتهيا عن تحت أثلتنا
 ولست ضائرهما ما أطت الأبل
 (١٤٩) لحيم : انتهى اللحم وقُرم إليه ، واكل منه كثيرا .
 ولحم الصقّر : انتهى اللحم .
 (١٥٠) رتعت الماشية : رعت كيف شاءت في خصب وسعة .
 ورتع لي لحمه : اغتابه ، فهو راتع (ج) : رتاع ، ورتع .
 (١٥١) وردت في الأصل : ثمت ، ولا يستقيم البيت .
 (١٥٢) الأزل : الوعل ، والدهر الشديد الكثير البلبا .
 (١٥٣) الجدع : يقال ذهب القوم جدع مدع : تفرقوا في كل وجه .
 (١٥٤) المشرقية : هي سيوف منسوبة الى (مشارف) الشام ، وهي قرى من أرض العرب تدنو من الريف ، أو كل قرية بين بلاد الريف وبلاد العرب . قال المبرد : نسبت هذه السيوف الى المشارف من أرض الشام ، وهو الموضع الملقب : (مؤتة) الذي قتل فيه جعفر بن أبي طالب وأصحابه ، انظر معجم متن اللغة (٣/٣٠٩) .

والسّمهرية (١٥٥) مطرور أسنتها
 وحومة الموت تغلى وردها شراع (١٥٦)
 إن البرية قد ملئت ولايتكم
 تمسكوا بحبال العهد وادرعوا
 فلن تزالوا رعوس الناس ما صلحوا
 وما شكرتم وضحى العهد يتبع
 وكان الذى هم بخلع الوليد بن يزيد ، هو هشام بن عبدالمك ، فكتب إليه العباس بهذا الشعر (١٥٧) ، والصحيح أن الذى هم بخلع الوليد هو يزيد بن الوليد (١٥٨) ، كما ذكرنا سابقا ، فتمثل العباس بأربعة أبيات من هذا الشعر مع اختلاف بسيط في الفاظ تلك الأبيات الأربع وما جاء في تلك الأبيات ضمن القصيدة الكاملة هذه (١٥٩) ، وقد نص ابن الأثير في تاريخه : أن العباس تمثل بهذه الأبيات الأربع ، دون أن ينسبها إليه ، بينما ورد بيتان منها في معجم الشعراء للمرزباني نسبها إلى العباس ، مما يؤيد نسبتها إليه ، وأنه هو فائلها ، وهى من مقوله لامن منقوله ، والبيتان من القصيدة هما : (١٦٠)

لا يلقين عليكم من سفاهتكم
 مع الشقاء يديه الأزل الجدع
 لا ترتعن ذئاب الشوع ملكهم
 إن الذئاب إذا ما أرتعت رتع

ومن شعره قوله في زوجته أم سعيد بنت عبد الله بن عمرو بن عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وكان قد طلقها ثم ندم (١٦١) :

أسفدة هل إليك لنا سبيل
 وهل حتى القيامة من تلاقى

- (١٥٥) السّمهري : الرمح الصليب العود ، وهو النسوب الى (سَمَهَر) وهو رجل له زوجة تسمى : ردينة ، يشقان الرماح ، فنسبت اليهما ، انظر معجم متن اللغة (٣/٢١٧) .
 (١٥٦) شرع (ج) الشرعة : الوتر الدقيق مادام مشدودا على القوس . وقيل : أو العود ، أو الوتر مشدودا وغير مشدود ، انظر معجم متن اللغة (٣/٢٠٦) .
 (١٥٧) تهذيب ابن عساکر (٢٧٠/٧) .
 (١٥٨) ابن الأثير (٢٨٠/٥) ومعجم الشعراء للمرزباني (٢٦٤) .
 (١٥٩) ابن الأثير (٢٨٤/٥) .
 (١٦٠) معجم الشعراء للمرزباني (٢٦٤) ، والاختلاف في بعض كلمات هذين البيتين وبين ما ذكرت في تهذيب ابن عساکر (٢٧٠/٧) واضح .
 (١٦١) معجم الشعراء للمرزباني (٢٦٤) وتهذيب ابن عساکر (٢٧١-٢٧٢/٧) ، ولا يمكن أن تكون سعدة بنت عثمان ابن عفان لتباعد الزمن ، بل هي كما ذكرنا .

بلى ، ولعل ذلك أن يؤاتى (١٦٢)
بموت من حليلك أو فراق
فأرجع شامتاً وتقر عيني
وينشعب صدعنا بعد اشتياق

ومن دراسة شعر العباس ، يبدو أنه من الشعراء الهواة ، لا يبلغ أن يكون شاعراً يجرى ولا يجزى معه ، ولا أن يكون شاعراً لا تشتفى أن تسمعه ، بل هو شاعر يجرى بوسط المعمة .

ه . بقى علينا أن نتحدث عن خاصة نفس العباس إنساناً ، فقد قيل عنه أنه ينتهم في دينه (١٦٣) ، وقد نقل ابن عساكر هذه التهمة عن المرزبانى من كتابه : معجم الشعراء ، فمصدر التهمة واحد ، والمتهم يعنى بالأدب لا بالتاريخ .

أما المصادر التاريخية القديمة المعتمدة ، فلم تذكر شيئاً عن انحرافه الدينى ، ولم توجه إليه مثل هذه التهمة ، بل ذكرت ما يؤكد ميله إلى الدين ، كموقفه في غزوة (طوانة) ، فقد اجتمع عليه نحو مئة ألف من الرثوم ، فلما ثبت أعداؤه نادى : « أين الذين كانوا يلتمسون الشهادة أين أهل القرآن ؟ » (١٦٤) .

كما أنه كان حريصاً على بناء المساجد ، كما فعل في بناء المسجد الجامع في مدينة (مَرَعَش) . ولو أن العباس كان ينتهم في دينه ، لما سكت عنه المؤرخون الثقة ، فهم لم يسكتوا عن انداده من بنى أمية ، بل لم يسكتوا عن قسم من خلفاء بنى أمية ، وسجلوا انحرافاتهم بصراحة وبكثير من القسوة في بعض الأحيان ، وقالوا في قسم منهم ما لم يقله مالك في الخمر ، كما يقول المثل العربى المشهور !

وسكوت المؤرخين الثقة عن العباس ، وحديثهم عن جهاده وسيرته العطرة بالثناء دون الإشارة إلى اتهامه في دينه ، ينفى عنه هذه التهمة التى لا دليل عليها .

وحتى المرزبانى الذى اتهمه في دينه ، لم يذكر كلمة واحدة دليلاً على صدق هذا الاتهام .

- (١٦٢) ورد كذلك في معجم الشعراء للمرزبانى (٢٦٤) ، أما في تهذيب ابن عساكر (٢٧١/٧) ، فقد ورد صدر هذا البيت : بلى ولعل دارك أن تؤاتى .
- (١٦٣) تهذيب ابن عساكر (٢٧١/٧) ومعجم الشعراء للمرزبانى (٢٦٤) .
- (١٦٤) تهذيب ابن عساكر (٢٧١/٧) .

ومن الأنصاف أن نذكر ، أن هذه التهمة لا دليل عليها ، ولو كانت صحيحة لما أحجم المؤرخون الثقة عن ذكرها ، فليس هناك سبب لأحجامهم عن ذكرها وإثباتها ، كما فعلوا مع غيره من بنى أمية ، وكما فعلوا مع غير بنى أمية من ذوى الجاه والسلطان .

وقد وصفه علي بن عبدالله بن العباس ، وكان لا يحب الأمويين ، ويعمل سراً وعلناً على تقويض ملكهم وانتزاع السلطة منهم ، وكانت الدعوة العباسية قد استشرت في تلك الأيام ، ولها دعاة يعملون لتحقيق أهدافها ، فقال علي : « لو قيل لى : إن هذا الأمر لا يخرج من آل مروان ، ثم قيل لى : اختر رجلاً لهذا الأمر ، ما اخترت إلا العباس ، فأنى ما سمعت منه كلمة خنا منذ جالسته » (١٦٥) . وهذه شهادة لها وزنها وقيمتها ، لأنها صادرة عن أكبر شيوخ بنى العباس بحق أموى من الأمويين ، وهى إن دلّت على شيء فإنما تدل على كذب التهمة في دين العباس . وقد ذكر عنه أنه كان أمرؤ صدق ، ولم يكن في بنى أمية مثله ، كان يتشبه بعمر بن عبدالعزيز . (١٦٦)

والذى يبدو أنه كان مترفاً ، يميل إلى الترفيه عن نفسه ، ويحب أن يلهو كما يلهو غيره من أولاد الخلفاء ، دون الخروج على تعاليم الدين الحنيف ، فهو غير متهم في دينه ، ولكنه ليس تقياً ورعاً كعمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه ، الذى اعتبره قسم من المؤرخين خامس الخلفاء الراشدين ومما يروى عنه ، أنه كان في مجلس عمر بن عبدالعزيز ، فعرضت على عمر جوار ، فكلما مرت به جارية تعجبه قال : « يا أمير المؤمنين اتخذ هذه ؟ ! » ، فلما أكثر قال له عمر : « أتامرنسى بالزنا ؟ ! » ، فقام العباس من مجلس عمر ، فمر بأناس من أهل بيته ، فقال لهم : « ما يجلسكم بباب رجل يزعم أن آباءكم زناة ؟ ! » . (١٦٧)

ولست أصدق هذه الرواية ، فقد كان عمر في شغل شاغل عن التوافه ، كعرض الجوارى عليه ، كما كان العباس أذكى من أن يعرض على عمر بن عبدالعزيز مثل هذا العرض ، فابتعاد عمر عن مثل هذه الأمور معروف للقاصى والدانى ، ولكن القصة تنم على حب العباس لكل ما يرفقه به عن نفسه ، فإذا تخلى عمر عن أى نوع من الترفيه عن النفس

- (١٦٥) تهذيب ابن عساكر (٢٧١/٧) .
- (١٦٦) الاغانى (٧٢/٧) .
- (١٦٧) تهذيب ابن عساكر (٢٧١/٧) .

ورعا ، فليس كلهم مثله ، وأين في الناس في تلك الأيام مثل عمر ؟!

لقد كان العباس فارساً سخيّاً (١٦٨) ، شهماً غيوراً ، شاعراً أديباً ، يقرب الشعراء ويعطيهم المال والهدايا على مدائحهم ، لذلك مدحه الشعراء وأقبلوا عليه .

مدحه جرير فقال (١٦٩) :

إنّ النَّدَى حالفَ العباس إن له
تبتّ المكارم ينمى جدّه ضعدا

ومدحه الفرزدق فقال (١٧٠) :

إنّ أبا الحارث العباس تأملنه
مثل السّمك الذي لا يخلّف المطرا
ومدحه بشير بن عبدالله السلمي فقال (١٧١) :

لقد علمت حقاً إذا هي حصلت
لأحسابها يوماً لمكرمة فيهنر
باتك يا عباس غيرة مالك
إذا افتخرت يوماً وقام بها الفخر
فتى يجعل المعروف من دون عرضه
وينجز ما منى كما ينجز النذر
تمتّه من العليا فتاة بريّة
من العيب والأفات ليس لها فطر
تسامى الثريا أو تلم فروعها
ويقصر عنها أن يساويها النسر
فأقسيم لو كان الخلود لواحد
من الناس عن مجدر لا خلدك الدهر

وأقبال الشعراء عليه ومدحهم له ، دليل على أنه كان سخيّاً جواداً ، وأنه يميل إلى هذا الفخر ويحبّ الثناء وليس دليلاً على أن المزايا التي ذكرها الشعراء عنه موجودة فيه حقاً ، فطالما سرد الشعراء مزايا لأشخاص غير ميسرة فيهم من قريب أو بعيد .

سكن (حمص) واستعمله أبوه عليها (١٧٢)

(١٦٨) تهذيب ابن عساكر (٢٧٠/٧) .

(١٦٩) الميون والحدائق (١٤) .

(١٧٠) العقد الفريد (٢٢٢/٤) والميون والحدائق (١٤) .

(١٧١) تهذيب ابن عساكر (٢٧٠/١ - ٢٧١) .

(١٧٢) تهذيب ابن عساكر (٢٧٠/٧) .

كما ذكرنا من قبل ، وكانت داره بدمشق قبلية زقاق العجم مما يلي درب السلم والخضراء (١٧٣) .

وكان أحمر اشقر (١٧٤) أزرق (١٧٥) .

والدته نصرانية مسيحية كما مرّ بنا ، رومية (١٧٦) .

وكانت تحتها بنت قطريّ بن الفجاءة الخارجيّ الشاعر ، سبأها وتزوجها (١٧٧) ، كما كانت تحتها سعدة بنت عبدالله بن عمرو بن عثمان ابن عفان رضى الله عنه طلقها ثم ندم عليها (١٧٨) ، وكانت تحتها ربينة بنت عبدالله بن حكيم بن حزام وأمها سكينه بنت الحسين بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهم (١٧٩) ، وقد ولدت له بنت قطريّ بن الفجاءة المؤمل والحارث (١٨٠) ، وسكت المؤرخون عن زوجاته الأخريات .

وكان للعباس ثلاثون ابناً ذكوراً ، منهم : نضر دخل الأندلس ثم رجع ، والمؤمل ، والحارث (١٨١) .

وسجن مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية العباس ، لأنه خافه على نفسه ، وخشي أن يخرج عليه ، فقتل في سجنه خنقاً (١٨٢) ، وفي رواية : أنه مات في سجنه بالبواء في مدينة (حرّان) (١٨٣) الذي كان العباس في سجنها مع جماعة من بنى أمية وبني العباس وبني هاشم ، وكان موته سنة اثنين وثلاثين ومئة الهجرية (١٨٤) (٧٤٩ م) .

وأرجح أنه مات بالبواء ، إذ لا تصوّر أن

(١٧٣) تهذيب ابن عساكر (٢٧٠/٧) .

(١٧٤) ابن الأثير (٧٤/٥) .

(١٧٥) المعارف (٥٨٥) .

(١٧٦) العقد الفريد (٢٥/٤) و (٤٥٠/٤) .

(١٧٧) العقد الفريد (٢٢٢/٤) والميون والحدائق (١٤) .

(١٧٨) معجم الشعراء للمرزباني (٢٦٤) وانظر تهذيب ابن

عساكر (٢٧١/٧) ، وفيه : أن سعدة بنت عثمان بن

عفان وهذا خطأ بل هي حفيده .

(١٧٩) جمهرة أنساب العرب (١٢١) .

(١٨٠) العقد الفريد (٢٢٢/٤) والميون والحدائق (١٤) .

(١٨١) جمهرة أنساب العرب (٨٩) .

(١٨٢) مروج الذهب (٢٤٤/٣) .

(١٨٣) حرّان : مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة ابن عمر ، وهي

قصة ديار مضر ، بينها وبين الرها يوم واحد ، وبين

الرفقة يومان ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٤١/٣ -

٢٤٢) .

(١٨٤) ابن الأثير (٤٢٢/٥) وانظر تهذيب ابن عساكر (٢٧٢/٧)

وابن خلدون (٢٧٨/٣) .

تبلغ القسوة بمروان بن محمد أنه يتقدم على قتل العباس خنقا .

ولا ذكر لتاريخ مولد العباس ، ولكنه تولى أول منصب قيادي له سنة ثمان وثمانين الهجرية (٧٠٧ م) ، وأبناء الخلفاء وامراء البيت المالك الأمويين لا يتولون مثل هذا المنصب القيادي اعتياديا قبل أن يبلغوا سنّ العشرين من أعمارهم يزيد ذلك قليلا أو ينقص قليلا ، ولكن عمر العشرين هو المعدل غالبا ، كما مرّ بنا في سير قادة الفتح من بنى أمية .

نستنتج من هذا ، أن العباس ولد في نحو سنة ثمان وستين الهجرية (٦٨٧ م) ، وتوفي سنة اثنتين وثلاثين ومئة الهجرية (٧٤٩ م) ، أي أن عمره حين فارق الحياة كان أربعة وستين عاما قمرية واثنتين وستين عاما شمسية .

ومضى العباس إلى جوار ربّه ، بعد أن أثرى الفتح الإسلامي ، وقدم درسا لدعاة الفتنة والتفرقة ، بأنّ الفتنة لا تصيب الذين أشعلوها خاصة ، بل الذين بذلوا قصارى جهودهم لأخمادها ، فتحرق البريء والمجرم ، وبأنّ التفرقة تضعف الدول وتؤدي بها إلى الانهيار .

القائد

أثمر التدريب العسكري للعباس على الفروسية ، فأصبح العباس : « فارس بنى أمية » (١٨٥) في أيامه « وفارس بنى مروان » (١٨٦) أصحاب السلطة والسلطان .

وقد اهتم الوليد بن عبد الملك بابنه العباس اهتماما خاصا ، وقد يكون سبب هذا الاهتمام أن العباس كان أكبر أولاد الوليد ، فوجد فيه وجدا شديدا ، وكان له في قلبه أحسن موقع ، « فأدبّه بجميع الآداب » (١٨٧) . وقد يكون سبب هذا الاهتمام أن الوليد وجد في ابنه العباس استعدادا فطريا ورغبة عارمة في التعلم وتلقى العلوم والآداب والفنون . ومهما يكن السبب ، فقد كان الوليد حين يتحدث على بنيه ، يقول عن العباس : « العباس فارسهم » أو : « العباس أفرسهم » (١٨٨) ،

(١٨٥) العيون والحدائق (١٤) والمعارف (٢٥٩) .

(١٨٦) تهذيب ابن عساكر (٢٢٠/٧) .

(١٨٧) تهذيب ابن عساكر (٢٢٠/٧) .

(١٨٨) العيون والحدائق (١٤٩) .

مما يدل على أن تدريب العباس أثمر أحسن الثمرات ، فأصبح فارسا لامعا في أيامه .

وقد كان للتدريب العسكري في أيام السّلام أو في ميادين التدريب العسكري البعيدة عن ساحة الحرب ، أسبقية مطلقة بالنسبة لأبناء الخلفاء وذكر البيت المالك ، وكان هذا النوع من التدريب يقتصر على ركوب الخيل ، والرمي ، والسباحة والسير مسافات شاسعة ، وتحمل الثقلات الجوية صيفا وشتاء ، والصبر على الجوع والعطش والاكتهاف بالقليل من الطعام والماء ، وتناول الطعام الخشن وشرب المياه الملوّثة ، والعيش في المعسكرات البعيدة عن الترف ، ودراسة الأساليب التعبوية وفنون القتال ، وقراءة تاريخ الحروب وبخاصة غزوات النبي صلى الله عليه وسلم وسراياه وأيام العرب قبل الإسلام وبعده وتاريخ الفتح الإسلامي وسير القادة الفاتحين ، وقد استطاع العباس أن يبرز أقرانه في مجال الفروسية التي تشمل الضرب بالسيف والطنن بالرمح والتصويب بالسهم ، مع أن التدريب على الفروسية من أصعب التدريبات العسكرية واشقّها حينذاك .

إلا أن التدريب العسكري نظريا وعمليا ، الذي يكون بعيدا عن ساحة القتال ، بعيدا عن أخطار الحرب ، أقل أهمية من التدريب العسكري الذي يتعلّمه الجندي والقائد في ساحة القتال ، لأنّ التدريب الأول هو تدريب فردي ، والثاني هو التدريب الإجمالي ، والأول أساس الثاني ، ولكن الثاني ثمرة الأول والتطبيق العملي للتدريب الفردي ، وقد مارس العباس التدريب الإجمالي عمليا في ساحة القتال ، وهو ما نطلق عليه اليوم : تطعيم المعركة (١٨٩) ، فأصبحت له تجربة عملية على ممارسة القتال .

وقد كان للوليد بن عبد الملك مزايا كثيرة ، منها : « أنه كان يرسل بنيه في كل غزوة إلى بلاد الروم » (١٩٠) .

وكانت للوليد ثلاثة أهداف من إرسال بنيه في كل غزوة ، وهي أهداف جليّة لو تعلمناها اليوم لتبدل حالنا إلى أحسن حال .

الهدف الأول : أن يؤثر بنيه بالخطر في الحرب ، ولا يجعلهم يستأثرون بالأمن في السّلام ،

(١٨٩) تطعيم المعركة : ممارسة القتال عمليا للتعود على جو المعركة وتحمل أعبائها عمليا .

(١٩٠) ابن الأثير (٩/٥) والهداية والنهاية (١٦٤/٩) .

فقد قضى ثلاث سنوات من حياته العسكرية غازیاً للتدريب على واجبات القائد ، وقضى أربع سنوات قائداً مستقلاً : سنة ثلاث وتسعين ، وأربع وتسعين ، وخمس وتسعين ، وثلاث ومئة الهجرية ، ولكن غزواته كانت غزوات تعبوية لا سَوَاقِيَّة (استراتيجية) ، بينما كانت ظروفه ابناً لخليفة وأخاً لخليفة تعينه - لو أراد - أن يقضى عدداً من السنين أكثر في الجهاد ، وتعينه أيضاً على تولى قيادات كبرى ذات أهداف سَوَاقِيَّة والعهد بالقادة الموهوبين أن يقضوا أكثر سنى حياتهم في ساحات القتال ، ويتولوا قيادات كبرى ذات أهداف سَوَاقِيَّة .

أما سنة اثنتين ومئة الهجرية ، فقد قضاها في ساحة قتال العراق ، لغرض القضاء على ثورة ابن المهلب ، وكان العباس في هذا الاقتتال قائداً مرعوساً ، وكان القائد العام هو عمه مَسْلَمَة بن عبد الملك ، وكان العباس على مقدمة مسلمة يوم (العَقْر) (١٩٢) الحاسمة .

إنَّ القائد الموهوب ، يقضى معظم حياته غازیاً لا جابياً ، والذي يبدو أنَّ العباس قضى معظم حياته جابياً لا غازیاً ، فتولى (حِمَص) وسكنها ، وتولى مدينة (حَلَب) .

ولكنه كان يكره (الفتنة) ويحرص على وحدة الصفوف ، كما كان دمثاً رضى الخلق ، لا تسمع منه كلمة (١٩٣) خنا ولا نابية ، وهذا ما يجعله محبوباً من رجاله ، يبادلهم حباً بحب ، موثقاً به من الذين يعملون تحت إمرته ، يبادلهم ثقة بثقة ، وهاتان صفتان للقائد المتميز .

كما كان لا يستغل سلطانه لمصلحته الشخصية ، فيستأثر بالمغانم ويؤثر جنوده بالمغارم ، فقد كان نصيب كل جندي من مغانم معركة (طوانة) مئة دينار ، فكان سهمه ما أصاب كل واحد من أفراد جيشه (١٩٤) ، وهذا يدل على أنه كان يعدل في الرعيّة ويقسم بالسوية .

وهذه صفة من صفات القائد المتميز أيضاً .

وحين تولى الوليد بن يزيد بن عبد الملك الخلافة ، كان أول شيء نظر فيه أن كتب إلى

(١٩٢) معجم الشعراء للمريزباني (٢٦٤) .

(١٩٣) تهذيب ابن عساكر (٢٧١/٧) .

(١٩٤) تهذيب ابن عساكر (٢٧١/٧) .

بهذا يقدم القدوة الحسنة لرعيته ، فلا يطالبهم بالجهاد بما فيه من تكاليف التضحية والبدل والفداء ، دون أن يطالب أولاده بما يطالب به غيرهم من الناس ، حينذاك لا يستطيع أحد أن يتخلف عن الجهاد ، بحجة أنَّ الخليفة يطالب غيره بالبرِّ وينسى نفسه .

والهدف الثاني : أن يجعل أولاده يشاركون في شرف الجهاد ، وهو شرف عظيم وفرض من فروض الدين الحنيف ، وشستان بين المجاهدين والقاعدین .

والهدف الثالث : أن يدرّبهم عملياً على متطلبات القتال جنوداً وقادة ، فليس الذي يدرس تاريخ الحرب كالذي يعانيها .

ولقد كان نصيب العباس بن الوليد بن عبد الملك من الجهاد أوفى نصيب ، فقد جاهد ثلاث سنوات (سنة ثمان وثمانين وتسع وثمانين الهجريّتين) مع مَسْلَمَة بن عبد الملك وبأمرته المباشرة ، ليتعلّم فنَّ القيادة من قائد فذ ، وغزا سنة تسعين الهجرية مستقلاً ولكن في نطاق ساحة قتال عمه مسلمة أيضاً ، ليكون بأشرفه غير المباشر ، وبذلك استكمل العباس في هذه السنوات الثلاث تدريبه العملي في ساحة القتال على القيادة بأشراف مسلمة المباشر وغير المباشر .

وبعد هذه السنوات الثلاث ، انطلق العباس تائداً مستقلاً ، فأفتتح مدناً وحصوناً كثيرة من بلاد الروم (١٩١) ، كما سردنا تفاصيل غزواته وفتوحه فيما ذكرناه عن : (جهاده) .

ومن المعلوم أن القائد المتميز يتّصف بثلاث خصال : الطبع الموهوب أولاً ، والعلم المكتسب ثانياً ، والتجربة العملية ثالثاً وأخيراً .

وقد تيسّرت فيه خصلة : العلم المكتسب ، بشكل قلما تيسّر في غيره من القادة ، نظراً لظروفه الخاصة به ، وهى رعاية أبيه له في مجال التعليم رعاية بلغت الغاية حقاً .

كما تيسّرت فيه التجربة العملية تدريباً وتنقيداً في ساحات القتال .

أما اتّصاف العباس بالطبع الموهوب ، فإنّ المعلومات الواردة في سيرته قائداً وإنساناً لا تعين على إعطاء القرار الصائب : هل كان قائداً موهوباً ، أم كان قائداً موظفاً حسب .

(١٩١) تهذيب ابن عساكر (٢٧٠/٧) ، وانظر التفاصيل في (جهاده) من هذا البحث .

العبّاس أن يأتيَ (الرصافة) (١٩٥) ويحصى ما فيها من أموال هشام بن عبد الملك وولده ، ويأخذ أمواله وحشّته ، ففعل العبّاس ما أمره به الوليد (١٩٦) .

وهذا إن دلّ على شيء ، فأثما يدل على أمانة العبّاس ، وهي صفة من صفات القائد المتميز أيضاً كما تدل على قوة شخصيته ، إذ لا يستطيع أن يقدم على تصفية خليفة راحل له أبناء أشداء غير قوى الشخصية عظيم المكانة مهّاب .

وقد كان العبّاس فارساً لا يشق له غبار ، شجاعاً مقداماً ، لا يجبن أبداً ، ويثبت في المعركة ويحرّض رجاله على الثبات كما حدث في معركة (طوانة) وقتاله في العراق بمعركة (سورا) ، إذ كانت الجولة الأولى في هاتين المعركتين للعدو ، ولكن ثبات العبّاس غير سير المعركة من الهزيمة إلى النصر .

ومن الواضح أنّ للعبّاس قابلية أدبية ، استفلّها في تحريض المقاتلين على الثبات ، وهذه القابلية ميزة من ميزات القائد الجيّد .

لقد كان قائداً تلقى العلوم العسكرية والنظرية ، ومارس القتال ، يتحلى بالضبط المتين ، محبوباً ، ثقة ، ذا خلق متين ، غير مستغل ، أميناً ، شجاعاً مقداماً ، فارساً من الطراز الأول ، خطيباً مؤثراً في أتباعه ، ولكنني أشك في أنه كان قائداً موهوباً ، والدليل على ذلك بقاؤه بعيداً عن حصار (القسطنطينية) في أيام سليمان بن عبد الملك ، ولو كان موهوباً لكان له دور مرموق في ذلك الحصار ، ولاستعان به سليمان بن عبد الملك كما استعان بغيره من قادة بنى أمّية وغيرهم ، ولما

(١٩٥) الرصافة : رصافة الشام ، وتسمى رصافة هشام بن عبد الملك بن مروان ، تقع في غربي الرقة بينهما أربعة فراسخ على طرف البرية ، بناها هشام لما وقع الطاعون بالشام ، وكان يسكنها في الصيف ، وقد كانت الرصافة موجودة قبل الاسلام بدهر ليس بالقصير ، انظر التفاصيل في معجم البلدان (٢٥٥/٤) والمشارك وضعاً والمفتري صقعا (٢٠٦-٢٠٥) .

(١٩٦) العقد الفريد (٤٥٢/٤) .

أبقاه على الهامش بعيداً عن معاونة مسلمة بن عبد الملك في الحصار .

ولعلّ مسلمة كان في شك من قابلية العبّاس القيادية ، وهو الذي درّبه على التطبيق العملي في الجهاد ، لذلك نشب بينهما الخلاف حين كانا يعملان معاً في ساحة الاقتتال بالعراق ، فبلغ ذلك يزيد بن عبد الملك ، فبعث إليهما وأصلح بينهما (١٩٧) ولكنّ فضل العبّاس في حماية الحدود الشمالية الغربية للدولة لا ينكر ، وفضله في الفتوح التعبوية واضح للعيان .

العباس في التاريخ

يذكر التاريخ للعباس تمسكه الشديد بأهداب وحدة الصف ، وابتعاده عن أحداث المشاكل والفتن ، في ظروف كثر فيها اصحاب المشاكل ودعاة الفتن .

ويذكر له أنّه لم يشارك في الفتن بلسانه وسيفه ، بل بذل أقصى جهوده لأخمادها .

ويذكر له بعد نظره الذي أعلنه لدعاة الفتن ، فوق ما توقعه وحدث ما كان يخشاه .

ويذكر له مواقفه الصلبة دفاعاً عن مصير الدولة في القتال والاقتتال على حد سواء .

ويذكر له صفاته الخلقية الرفيعة والتزامه بالمثل العليا التزاماً صارماً .

ويذكر له فتوحاته لكثير من الحصون والمدن في بلاد الرّوم ، ودفاعه بالهجوم عن الحدود الشمالية الغربية للدولة .

ويذكر له أنه ضحى بحياته من أجل مثله العليا ، ولم يضح بتمثله العليا من أجل حياته .

ويذكر له أنّه كان إدارياً ناجحاً ، ترك آثاراً باقية في (مرعش) تعميراً وتحصيناً ورباطاً .

يرحمه الله جزاء ماقدّمه من خدمات مخصصة للدولة في الميادين الإدارية والسياسية والعسكرية .

(١٩٧) ابن الأثير (٧٥/٥) .